دُنى غالي

منازل الوحشة

دار محمد علي الحامي

التنوير

دنى غالي

منازل الوحشة

دنى غالي

منازل الوحشة

رواية

الكتاب: منازل الوحشة
المؤلف: دنى غالي

عدد الصفحات: 208 صفحة

الترقيم الدولي. 978-9953-582-92-4

الطبعة الأولى: 2013

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر. دار التنوير للطباعة والنشر ©.

لبنان: بيروت ـ الجناح ـ مقابل السلطان إبراهيم
سنتر حيدر التجاري ـ الطابق الثاني ـ هاتف وفاكس 9611843340+
مصر. القاهرة ـ وسط البلد ـ 8 شارع قصر النيل ـ الدور الأول ـ شقة 10
هاتف: 27738931(2)20+ - 7332225(100)20+ فاكس. 27738932(2)20+
تونس. 24 نهج سعيد أبو بكر (ط 3) هاتف/ فاكس. 216333714+
البريد الإليكتروني. info@dar-altanweer.com
الموقع الإليكتروني. www.dar-altanweer.com

بالاشتراك مع دار محمّد علي للنّشر ©

نهج محمّد الشّعبوني – عمارة زرقاء اليمامة – 3027 صفاقس، تونس.
الهاتف: 00216/74407440 الفاكس. 00216/74407441
البريد الألكترونيّ: edition.medali@tunet.tn
رقم النّاشر: 13/484-16

إلى الضوء
أشعر بدفئه يلوحُ ظهري
وهو يشعّ في داخلي
وهجُه إلى الأمام، في آخر نقطة يصلها بصري
إلى فنن وعلي

2006

بغداد مطلع 2006

أتسـلّلُ من دون أن يشـعرا بي لأستريح. أزيح السـتارة من منتصفها لأحشـر نفسـي بين طياتها الثقيلة في الصالة بمواجهة الحديقة اليابسة. مازال السـياج الخارجي الـذي زدنا من ارتفاعه بسـبب الأوضاع غريبا علي. ما كان يحدث في الخارج غير متوقع، فرغم كل الاحتياطات التي قمنا بها لم نستطع حماية بيتنا.

سـاء الوضع الصحي لسـلوان وزادت انتكاسـاته، ومن الغريب انها راحـت تضبط إيقاعاتها على ما يحدث في الخارج. اكتشـفنا مع الأيام محنـاً أخـرى كانت مختبئة، هـل فاتنا الأمر؟ أبوه مثلي يلوذ بسـيجارته تعذّبـه فكرة سـهونا عن ابننا الوحيد. بتنا نتجنـب الخوض كثيرا في أمر السهو هذا، لئلا يوجّه أحدنا اللومَ إلى الآخر.

تجـول عينـاي فـي الحديقـة أمامـي. تغيـرتْ كثافة اللـون الأخضر وتدخّلت الحشـرات لترسم خرائطها الشـاحبة على الأوراق. النباتات تشبهنا في لهاثها. أجل باقية ولكن بنصف لون، بنصف قدرة على حمل ثمـر. أشـجار حديقتنا التي أعرفها تمـام المعرفة تبـدو بعيدة من خلف

زجـاج النافذة حيث أقف. صارت المسـافات تقاس عندي بالخوف لا الأمتار.

تأزّم وضع سـلوان النفسـي تحديدا بعد عام 2003 وساءت صحته، الأمر الـذي أفزع أباه وجعله يتخبّط بالتعامل معه. فَقَدَ وسـائلَ تواصلِه معـه دفعة واحـدة. وكأن ما حصل فـي البلد لم يكن كافيـا. لكل منهما انطواؤه، وأنا الحارسـة، تتنقل عيناي بينهما. ازدادا مع الوقت غربةً عن بعضهما ليضيفا إليّ همّا جديدا. رحت أتوسـع بحركة هلامية لأحتوي أزمة الاثنين في البيت.

عندمـا يعجز أسـعد عن فهم ما يدور برأس ابنـه يَقلّ حديثه. لم أكن أكثـر إحاطة منـه بما يعانيه سـلوان. كان هناك شـيء ما يحدث بشـكل متسـارع يبعد سـلوان عنا. ما فعلته وأفعله هو محاولاتي لأن أفهمَ على الأقـل. كخطـوةٍ أولى رضختُ لواقع لا يمكن تغييـره، وهو أنّ ابني لن يكون كما كان عليه من قبل. أسعد يلوذ بغرفته لكي يتدارك ما لا يمكن تداركه. يلوذ بكتاب، بفرشاة ألوان جافة وأوراق مصفرة، وهذا لا يبوح بالشيء الكثير.

كان لسـلوان منـذ طفولتـه وضع خـاص. كيـف؟ لا أدري! أختنق أحيانـا بالكلمـات المحشـورة في بلعومي وأحار كيف أشـرح لأسـعد ذلـك فأسـكت. لم يُشـخَّص مرضه. من هـو بعيد عنه لا يلاحظ شـيئا. تجمعت شـكوك في صحـة قلبه ومن ثم دمه. كان طويـلا نحيلا، تزداد بشـرته الفاتحـة شـحوبا كلمـا أبقيناه حبيس البيت لا تلامسـه شـمس. تعددت التشخيصات مع الوقت وتباينت حالته بين استقرار واضطراب مـن دون عـلاج. ولادتـه جـاءت أواخر السـبعينات. عندمـا أرجع الى

الماضي لا أجد الكثير مما خططنا له. كانت الأحداث تمضي سريعا، من دون أن نستطيع أن نتفاداها أو نعكس اتجاهاتها.

حاولنا كثيراً، وأقصى ما حققناه، هو أن نعزل أنفسنا. السياسة ومن دون أن ندري، تختارنا في هذا البلد، تدخل في أدق تفاصيل حياتنا. العزلة هي ما يمكننا القيام به، هي عجزنا في تفادي ما يمكن أن نتورط فيه بلا خيار.

انتبه أبي مبكرا لهذا، فعزل نفسه وعزلني معه. انعدم الخوض في السياسة في البيت إلا من قبيل التهكم عليها. كان تهكمه يحمل المرارة التي أورثني بعضا منها. لقد بدا لي أن تهكمه مثل صدى قهقهة لا تلبث أن تستولي عليّ، فإذا بي أكره شيئا في داخلي أجهله ولا أعرف مصدره.

ابتعد أسعد وانزوى هو الآخر ولكنه لم ينج. كان قريبا من الشيوعيين لفترة قصيرة من شبابه جعلته موصوما. لم يستطع ابعاد الشبهة عنه بوصفه شيوعيا ولم يكن ذلك بغريب؛ تبقى هذه الشبهة مثل لعنة تلاحق المرء حتى القبر. من هنا بقي أسعد مصنفا ضمن مجموعة اليسار الصامتة أو الفئة المستقيلة. لم يكن من سبيل أمامه غير الانزواء، انزواء تجسد في حياتنا معا بالصمت المطبق ودوامة التفكير المستمر والتيه في دواخلنا.

«دعكِ من كل ما قاله الأطباء. ليس بالضرورة أن يشارك في حرب ليعاني من أمراض نفسية شبيهة" هذا ما قاله الدكتور حسام الذي تعرّف على حالة سلوان ورافقنا في مراجعاتنا للأطباء. تلك كانت مساهمته الخاصة بشأن سلوان. رائحة عيادته التي تفوح بالعطر الذي يستخدمه، شعره المصفف بعناية، وجهه المدور الحليق وما يردده

دائماً، هو ذاته. لم أجدْ نفعا في تكرار زياراتنا له. كان ينفي إصابة سلوان بمرض عضوي ويؤكد أنه يُشبه بوضعه الصحي العديد ممن جُندوا للحرب وشاركوا بمعارك حقيقية، لا يمكن لِمَن خاض تجارب من هذا النوع أن يعود سليما سويا، هذا غير ما نواجهه يوميا. هذا الجيل لم يكن محظوظا. يستدير نحوي ويتساءل بانفعال عن مدى قدرة أحدنا تحت هذا الظرف على المحافظة على شهيتِه وهو يصادفُ في طريقه إلى البيت جثةً صادَها قنّاص. أرتبك وهو يحاصرني بالسؤال. لحماسته يفلت قميصه من قبضة حزام بنطلونه وهو يلوّح بيديه. خرج بالأمس باحثا عن الممرض الذي يعمل لديه في العيادة بعد اختفائه لفترة من دون أن يعرف أحد سببا لاختفائه، لم تدرِ زوجته ما الذي تفعله وإلى أين تذهب مع الأطفال الخمسة الذين ينتظرون في البيت. يسألنا عن كيفية محافظة أحدنا على برودة أعصابه بعد انفجار فجائي على مبعدة بضعة أمتار منه، أو وهو يُحاصَر في الطريق بين سيارتين في تراشقٍ ناري، أو أن تحطّ على كتفه كفّ جندي أمريكي لتطرحه أرضا فيما خمس فوهات بنادق من حوله من دون سبب. يفتح أزرار كمّيه ويرفعهما ثنية ثنيتين إلى أعلى، يصل العطر الرجالي إلى أنفي، «كيف وابنكم الذي هو في مقتبل العمر لا يختنق ويُحبَط وهو يتحسس بؤس ما حوله، يعني ليس أمامه من أفقٍ مفتوح بمعنى الكلمة».

أصلُ حدّاً لا أقوى فيه على الانتظار داخل تلك الغرفة. أفزُّ من قوله وهو يستدير نحوي؛ «هل نحن أصحّاء نفسيا، ألسنا اليوم جميعا انتحاريين بمجرد خروجِنا من البيت؟». رفضتُ أن نقصده بعدها. لا أفهم لِمَ يقترحه أسعد كلما احترنا في كيفية حلّ مشكلتنا. لقد أردتُ

لسلوان دواءً محددا يشفيه وينتهي الأمر، وليس أن نجعل منه موضوعا. ندور به بين المستشفيات والأطباء بلا حل ولا شفاء. لم أعد أفهم شيئا عن حالة ابني، ثمة ترجيحات، تكهنات، تنتهي باحتمال أن يكون مصاباً باضطرابات نفسية وعصبية. ما من جواب شاف، لكننا واصلنا التوسّل مرّات ومرّات لنحصلَ على جواب يُريحنا. أنهضُ كالعادة مجبرةً من مكاني. نقطع بألم ممرّات المستشفيات العارية الكئيبة المرعبة مثل عجوزين أميين يُمسّكان بملف طبي وصور أشعات ومسكّنات. نتحاشى النظر لبعضنا البعض ونقفل عائدَين.

نعيش أيامنا تحت حالة أشبه بمنع تجوال اختياري. نبرع في الاستسلام لما يتفنّن الآخرون بفرضه علينا. ألازمُ المطبخَ، ويقيم أسعد في غرفة النوم، أما سلوان فهو في كهف، من أزمة نفسية إلى أخرى. الإثنان في ذهول دائم، رخوان ومحبّان، والعجز ينال جزءا كبيرا منهما على مرّ الأيام. عجزٌ في التعبير، عجزٌ في تدبّر الحال، عجزٌ في إظهار عاطفتيهما لبعضهما البعض. هذا عدا عن المأزق الجنسي الذي كان يجعلُ الأولَ محتدما ويزيدُ من خذلان الثاني. ألعنُ بسرّي لسان أمي الصريح.

أجرّب مع هذه الاخفاقات أن أهوّنَ على أسعد ولكن بغير قناعةٍ تامة. هو زوجٌ حساس سريعٌ في التقاط الإشارات. تكرّر فشل محاولته لمرتين، في الثانية بدا المشهد كوميديا نظرا لأني حاولت مداراة الموقف. ضحكتُ بعطف. انتابتني رغبة بالسخرية من انفعال ظَهَرَ على وجهِهِ. انسحبَ بعيدا عني إلى الجهة الأخرى من السرير ثم نهضَ ليشعلَ سيجارةً. قلت من دون احتراس أو توقع. «لنا جولات

ثانية». كانت مجرد محاولة عفوية لمداراة الموقف. خجلت من ذلك. أتساءل: لِمَ ينحصر تفكيره في إخفاقِه؟ وما همّ إن تكرر؟ لا أفهم كيف يفكّر. ثم أين نحن من كل هذا؟ نسمع إطلاقاتٌ لا يهدأ أزيزُها، مولداتٌ كهربائيـة لا تتوقّفُ زمجرتُهـا، وفي داخلي فراغٌ، وأمامـي عُمرٌ يزحفُ سـريعا. مُنحنى الدورة الشـهرية ونزفي يشـيرُ إلى خلخلـة واضطراب. أحـاول ألا أُولـي كلَّ ذلك اهتمامـا بينما تقلقه أمـورٌ لا وزنَ لها. أحيانا أقترب من مصارحته لكي يبدو كل شـيء واضحا، إلا أن معرفتي بشـدّة حساسـيته تجعلني أؤجل الأمر إلى مناسـبة أخـرى أدرك ضمنا أنها لن تحدث. لِمَ يتسى أننا كبرنا؟ أرفضُ إشارةً بعيدةً منه إلى رغبته بإشباعي. كنت مسـحوبة بتفكيري إلى أقصى مكان في رأسـي، حيث لا شيء. لا شـيء عدا اللاشيء. في سـرّي، لا أرغب في شيء سوى أن أشعرَ بقوةِ يدين تسـتقران على كتفي لأن جسدي ببساطة مهدود. نجمد في مكاننا ويظـل صامتا. تنسـحب ضحكتـي فأجلس في مكاني على السـرير. لا يتحرك. أشعر بالضيق فأرتدي ثوبي وأغادر الغرفة.

أبقـى صاحية ليلا حتى سـاعة متأخـرة. أحبّ الهـدوء لأنجز مهام البيـت. أنصرف إلى الجلـي ونقل الماء من حوض الغسـيل الأول إلى الثاني، أرتب أسطح الدواليب وأصفّ قناني الماء في الثلاجة، تفاصيل لا نهايـة لها كفيلـة بأن تبعدني عن الدوي المسـتمر فـي دماغي. يضيع نصـف الليـل أمام صحن مـن التمر، بين نبتة يائسـة تتحرش بي وجيش نمل يزحف أمام عيني ووميض يمرّ عبر النافذة. حين أعود إلى فراشـي أجـده منكبّـا علـى قراءة كتـاب تحت نـور المصبـاح الخافـت. يفتعل انشـغالا أدركُ ما يجولُ في باله. عبثا يحـاول أن يُخفيه. لم يعد يعنيني

غير اطمئناني أن يوما آخر ينقضي بسلام. أتهالكُ إلى جانبه على السرير من دون كلمة، مبحلقةً بالسقف حتى يجرفني النوم.

تنطلقُ في منتصف الليل موسيقى تهتزّ لها الأبواب الكبيرة ويرّن جراءها حديد النوافذ. ذروة جنون أوركسترالي تتصاعد آلات النفخ فيه، ترافقها دمدمة طبول متواصلة متلازمة تعمّ أرجاءَ البيت. رأسي جامد بمواجهة السقف يجمد بثقل الهزّة عميقا على الوسادة. أمعن في تثبيت جسدي. يتقلّب أسعد في مكانِه على السرير. أختنقُ ويغلبني شعورٌ بالعطف والحنان على سلوان. عرض ليلي حي تصطك الأسنان وترتعد أجزاء الجسم له. آلات النفخ مستمرة في تصاعد. أدور إلى الجانب الأيمن ثم أنقلبُ لأنامَ على بطني دافنةً رأسي تحت الوسادة.

يحاول أسعد بحذر ألا يوقظني عندما ينهض مبكرا جدا في الصباح. يرتدي قميص بيجامته، يُشعلُ سيجارتَه ويتسللّ خارجاً من الغرفة، يطلّ على سلوان أولا، يفتح الباب إلى الحديقة، ومن ثم يتفقّد الممّرات الخارجية للبيت. مواء قطة الجيران الصباحي. إن لم يعمد إلى تشغيل المولّدة سيعود إلى المطبخ لإعداد الشاي. حينئذ أرغبُ بالنوم بشدّة. يتسلّل الخدر إليّ. أشعر أن الحياة محتملة ولا بأس من البقاء في الفراش فترة أطول. إنها الساعة الأثيرة في كل يومي إن لم يحدث انفجارٌ قريب أو تمرّ سيارةُ إسعاف تزعق كأنها تقتحم مرآب البيت. أتخدّر وتغيب أطرافي.

استبشرنا بزوال النظام السابق وانقشاع عتمة الخوف عن حياتنا، لكنه عاد من جديد بهيئات أخرى. ألا يمكن أن نأمل؟ من غير المعقول أن نحذف الأمل من حياتنا. ثمة تغيير حصل، ثمة إمكانية. أحدّث نفسي

من أجل الأمل، لكن خيال أبي يظهر أمامي مقهقها متهكما ساخراً مني. أمـل! أملي أنا. فـي الحقيقة أنه لم يكن غير دغدغة من الأمل، مناوشـة صغيـرة منـه، لـم تدم سـوى بضعة أشـهر. الحياة سـرعان مـا هاجمتني بخبث، تكشـفت عـن أهوال لم تمـر بخيالنا. أتمنى أن أُلقـي بثقل كبير على رأسي يُبقي عينيّ مغمضتين كي أظل نائمة لبعض من الوقت.

أسـمع أسـعد وهو يدخل الغرفة ثانية، الصوت ذاتـه والبطء. يكون حـذرا بتحريكـه عدّة الرسـم التي نقلها إلـى الغرفة. يُدنيهـا، يبعدها ثم يعيدهـا قريبـا مـن النافـذة. ينفضح تلكـؤه في الحيـاة بهـذه الخطوات الصباحية الثقيلة. أبلع شيئا عسير الهضم ببلعوم جاف. عيناي مغلقتان. دندنة طفـل. عبثٌ بـالأدوات، إعادتها إلى مكانها، الانهمـاك بتنظيمها وضبّها من جديد. زحزحتها إلى مكانها السابق. سحب الستارة لحجب الضوء. أنفاس وهمهمات وانسحاب من الغرفة.

يقترب سلوان من الثلاثين. أطلق لحيته لتخفي نصف وجهه. لا ينطق فيه غير عينين عسليتين ذابلتين. تُظهر فانيلتُه البيضاء نحولَه. شبّ مبكرا وما عاد التخت يكفي طوله فتدلت قدماه النحيفتان خارج الحافة. هو مثل أبيه لا يحلق شعر أبطيه الكث فأشمّ رائحة الإثنين معا من على بعد. أقول له بين الحسرة والمداعبة وأنا أمسّد بيدي خصلات شَعره الكستنائي الناعم الطويل؛ «إن البنت التي ستتزوجها لن تقبلَ أن تراكَ نائما في حضن أمك».

إطلاقات متتالية مفاجئة تُسمع في الخارج، تقترب، صياح، كلماتُ بشرٍ خشنةٍ يمكن تمييزها. يرتعش سلوان مثل عصفورٍ مذعور في مكانه بجانبي.

بالكاد يغادر غرفته. وجوهٌ ملثّمة يمكن أن تقفزَ إلى داخل البيت، طلقة قد تخترق جدار غرفته من جانب الحديقة، جرّافات قد تُهدّمُ السياجَ بأوامر أمريكية. لا يجرؤ على النزول من السرير. أحرص على الاحتفاظ ببطاريات للمذياع الصغير له فهو منقذي في أيام أزماته. يتعجّلني عندما تنتابه حالة من الخوف بينما أستبدلُ له البطارية. يخطفه

منـي بعصبيـة، يدنيـه من أذنيه علـى الوسـادة ويرفع الصـوت عاليا بفم ناشـف. يظـلّ يلعب بالإبـرة لوقت طويل، يـدور بها علـى المحطات، يحرّك الراديو الى هذه الجهة أو تلك ليحصل على إرسـال جيّد، يستمر متنقـلاً من محطة الـى أخرى حتى أنبّهه أخيراً بصـوت عال وانفعال أن يكفّ أو يهدأ ورأسه في حضني. ضعفه الفاضح يزيدني غضباً عليه.

أحرص على البقاء قريبة من غرفته. أتمدّد على تخت أم أحمد وسط الصالون الصغير. هو مكانها الذي سـميناه باسـمها في حياتها. تستطيع من خلاله الإشراف على كل منافذ البيت، تكون فيه قريبة إن ناداها أبي لأمرٍ ما: تلك المـرأة لم تضحك إلا نادرا. كان كلامها محسـوبا أيضا. مـا تبقـى منها يتجمع فـي عينيها وإيماءات رأسـها. صامتـة دوما، ومن الغريـب أني لم أفكر يوما ما إذا كانت سـعيدة بيننا أم أن مسـحة الحزن على وجهها جزء من شخصيتها. كانت منسحبة كقطعة منسجمة مع هذا البيت، لم أسـألها من أين أتت؟ ماذا يـدور ببالها وما تريده في حياتها؟ هـي التي دخلت معي غرفـة الولادة وهي التي سـمّرتْ بيديها القويتين كتفـيّ إلى السـرير. جاء سـلوان أزرق ملفوفا بحبلي، تقـول إنني كدت أخنقـه وأنـا أدفعه خارجا. لا أدري كم سـاعة نمت، وكأنـي قد انتهيت من واجبي في الحياة سـاعتها. دخلتْ وهي تحمله إلي؛ «إنه يشـبهكِ»، حملقتُ بوجهها طويلا مدّت ذراعيها إليّ تشـجعني على أخذه. كنتُ أتحرك بإمرة تعابير وجهها حتى استوعبتُ حالتي الجديدة كأم. أقمتُ كحـلّ مؤقت عنـد أبي وتعاونّا هي وأنا لنحلّ ألغـاز هذا الكائن الصغير الغريـب الذي كان يبكي لسـاعات متواصلة ويتبادل حضنيْنا. ما إن يقع نظـري على فراش التخت حتـى تقتحم رائحتُها أنفـي مخلوطة برائحة

مراهـم عظامها النفّاذة، تشـعرني بشـيء ما قـد توغّل عميقا فيّ. أمسّـد بيدي مكانا فارغا ظلّ يدعمني.

أحـاول أن أقلدهـا. أمـرض مثلها في الخفيـة، أتألم مثلهـا من دون صـوت. بينما أبقى في مكاني على التخـت كما كانت تفعل مترصّدة ما يصدر من جهة غرفته. قد وضعت نفسها في خدمة أبي، مستعدة لقضاء حاجاته بإشـارة منه. تأخذ الإشـارة والأمر منه عبر جدار، وها أنا أفعل الشيء ذاته مع حفيده. سكون متواصل. فجأة يتراءى لي أني على حافة الجنـون. أتلفّت لوحـدي يمينا ويسـارا. أنزل من على التخـت وأتربّع علـى أرضية البلاط العارية. أقعي في مكاني، أنود وظهري يكاد ينقصم من انحناءته.

تشـتدّ آلام صدره، تتتابع أنفاسُـه ويشـعر بهلعٍ فيتشبّث بي ويظنّ أنه سـيموت. أقرأ وجهه. نوباته تباينـتْ حدّتها، عالجناها بالأبر والحبوب المهدئة القوية. لا أحبّ تأثيرها عليه فهي تتركه جثّة هامدة ممدّدة لأيام أمامنا. أضمّه طويلا إلى صدري. أفكر. لو تنشـّق السـماء وتبتلعنا معا. إنه يعتصرُ روحي فأنقم على نفسـي. يذبل وجهُه السمح الحنون، تغور عيناه بنظرتيهما العميقتين وتتيبّس شفتاه. مع انقطاع الكهرباء والصمت الذي يلفّ البيت ليلاً مع الإطلاقات البعيدة والقريبة وهو ممدّدٌ أمامنا، يصبح ابني جنازةً معدةً للتشـييع في أي وقت. يصيبُ أسـعد ضربٌ من الهيستيريا. يبقى محملقا في وجهه فأدفع به إلى خارج الغرفة أو أصرخ مثل مجنونة كي يصحو ويتغلّب على خوفه ويساعدني.

بعد الاحتلال عاد أسعد إلى وظيفته التي حُرم منها. بدا الأمر للوهلة الأولى أنه حصل على ترضية عن سنوات من الحرمان. أمضينا وقتا طويلا لجمع العديد من الشهادات والإثباتات الأصلية والمصورة حتى بدت المهمة شبه مستحيلة بالنسبة إليه. لم يكن لديه غير أمر إعفاء من الوظيفة في حينها، والأسباب غير مثبتة بكتاب الإعفاء، ولم تكن واضحة بالنسبة لنا، سوى أنها فُهمت ضمنا كعقوبة سياسية. لقد أجبره اضطرارنا والراتب المجزي وحثّ الأصدقاء على تحمّل الإجراءات وانجاز معاملة إعادة التعيين، مثل الكثيرين، وإن كان بشقّ الأنفس. وبرغم تردده باشر عمله أخيرا، بعد انقطاع سنوات، مدرّسا في معهد الفنون. كدت لا أصدق أنه عاد إلى وظيفته. فرحتُ بعمله الذي غيّر إيقاع حياته. كانت ساعاته تمر من قبل ثقيلة بطيئة لا يدري كيف يزجي الوقت خلالها. دخوله وخروجه أكسبه بعضا من التجدّد. قاموس مفرداتنا اختلف. أراحني فراغ البيت منه وانتظاري اليومي لعودته. لقد استعاد البيت شيئا من الإيقاع. كنت أجد التدريس وظيفة تصلح له أو تليق بمواصفاته. كان يقضي المساء مستعينا بكمبيوتره الذي

اقتناه بعد أن أنزلت البضائع الألكترونية في الأسواق بكثرة وبأسعار مقدور عليها. لكن ارتياحه واهتمامه بعمله سرعان ما بدأ يخفت. كان يومه يمتلئ بالقصص المرعبة التي أخذ ينقلها إلينا. تعابير وجهه وهو يتحدث معي، رائحته وهو يعبرني في المطبخ، مع رائحة حبر الجرائد التي راح يدخلها إلى البيت، كلها راحت تشير الى خارج معتم.

ولم تمض غير سنة حتى راح يتبرم. شعر أن الأجواء التي كان من الممكن أن تلائمه خارج البيت راحت تتبدد. عرفت هذا من حجم همهماته. عادتْ إليه مخاوفه وراح عندما يتكلم يفقد الكلمات التي يريد أن يقولها فيهزّ يده متبرّما من نفسه. أعرف أسعد، لم يكن سياسيا، لكنه يدقق في القضايا بمقاييس العدالة، وبمقياس الصح والخطأ الأخلاقيين. من يرى روحه السمحة ولطفه ويلمس هدوءه لا يتوقع منه أن يكون صارما في أحكامه. بيد أن الفوضى والفساد راحا يشيعان، والتخلّف الذي ملأ الشوارع مرمر فمه. قال إنه لم يعد يستسيغ شيئا؛ «ثمة وجوه أعرفها لبست أقنعة أخرى، اشتد سُعار الربح وتحددت أثمان كل شيء». لم يعد ينسجم مع وسطٍ بدا له غريبا هجينا.

تكبر سخريتي من مقاييس الصح والخطأ وأعتصم في مطبخي. تمنيتُ أن أكون قادرة على فعل شيء يغير حياتنا دفعة واحدة. أنصحه بالصبر لكنه سرعان ما يعود إلى التبرّم والشكوى. «لأن الوضع على حاله لم يتغير، ألا ترين؟»، «ولكن ألم نكن معا ومررنا بكل ما مررنا به سوية؟». يقول لا أدري. ولا أدري أنا إن كنتُ أطالبه أن يمهل الحكومة الجديدة سنة أخرى لتثبتَ كفاءتها، أم أني كنت أطالب بمهلة لأتمكن من استيعاب خراب روحه وتدهور حالة ابننا في خطين متوازيين.

راح ولدنا يجفّ أمامنا، مبتعدا عنا في هم ذاتي بدا أنه يعيش معه في داخله. لا نستطيع الوصول إليه، ولا هو يساعدنا لكي نصل. كان يمكث في مكتب أبيه الذي قمنا بتحويره ليكون غرفةً له. هو الذي اختاره ففرح أسعد باختياره. رتّبناه له ليشعر أنه خاصته. أحضرنا سريرا له ونقلنا جزءا من الأغراض إلى الغرفة في الطابق العلوي. وما يحتاجه أسعد ذهب إلى غرفتنا.

فسحة صغيرة تكفّل سلوان بجعلها مكانا يشبه معبدا لا يحبذ دخولنا إليه. منذ صغره وهو يفرح باختبائه في هذه الزاوية الباردة والقديمة بمحمولاتها. كان يندسّ لساعات تحت شرشفه على التخت مُنصتا بفضوله المعهود لكل ما يدور ويحدث. تعلم سلوان القراءة والكتابة مبكرا جدا. تعلّم تشغيل الغرامافون وهو مازال في الخامسة. كان يقوم بيديه الصغيرتين برفع أسطوانة بحذر مبدلا إياها بأخرى، مميّزا أغلفتها ليختار ما يحبّ من بينها. كانت أصواتنا تتعالى انبهارا لحركاته تلك فيقابل الإطراءات التي يسمعها من حوله بفرح. كنا نسمح له بالمبيت في المكتب على التخت كمكافأةٍ له، تحوط به الكتب التي تملأ

الجدران والأرضية، يسحب أحدها ويندسّ تحت الغطاء مع «التورج لايت» بعد أن يجعل أنغام «الناي المسحور» تسبح معه في فضائه. ينصت الى الموسيقى بانتظار آريا «بابا غينو» و«ملكة الليل» اللتين تثيرانه فيغرق بالضحك في تكرارهما.

عندما ودعت سلوان في صيف 1991 مع أبيه وكانا ذاهبين إلى عمّان، كنا نفكر في أمرين. إيجاد فرصة عمل لأسعد أفضل مما هو متاح هنا، ومساعدة سلوان في بدء حياة أخرى جديدة أقل ألماً وضغطاً. كنت سألتحق بهما حالما أتبين حالة أبي الصحية. لم أكن جدية يوما في أمر تحسين وضعنا المادي، أضعه بين قوسين، وأظنه تغليفا لأشياء أخرى لا يمكن حصرها، من قبلي ومن قبل أسعد، فقد كان أبي ضمانا لي دوما. لكننا كنا جادَّين في القرار. الخوف كان نابتا فينا، خوف أن يلمَّ بأسعد ما هو أسوأ منذ أن صدر أمر إعفائه من التدريس.

كان سلوان حينها طرياً حساساً أيضا، في أول سنيّ مراهقته. كنت أفكر في إبعاده عن الأجواء المشحونة التي عشناها في الأشهر الأخيرة من تلك الفترة من الحرب. استمعَ بلا داع إلى الأحاديث التي كانت تدور في البيت واستفاق على أخبار قصف بغداد وراقب معنا إعلان بدء الحرب على الشاشة بالألوان. وجدته يبتعد في تفكيره وينقل لي أشياءَ مخيفة مهولة تدور في باله. حساسيته لما حوله تكاد تكون غير طبيعية. لم يأبه أسعد لما تنبّهت إليه. صرت مع الأيام أخشى وقع ما يتداوله

الأصدقاء من أخبار واستنتاجات على نفسه. كنت أتضايق عندما أجده يجلس بينهم منصتا، وعندما يحشر نفسه في النقاشات أحيانا.

أعطيته الكيس الذي حوى الساندويتشات. أنزلتُ الحقيبة ودفعته بعيدا عن السيارة بعد أن قبّلتُه وأنا أودعه عند موقف السيارات. كنت قد أوقفت السيارة في المكان الخطأ. الازدحام والجو الذي ارتفعت حرارته عاليا عجّلا لحظات الوداع. أشار أسعد إلي أن أختصر. لأول مرة يسافر من دوني. قبل أن أنطلق بالسيارة نظرتُ إلى أسعد لأجعله يكرّر على مسامعي ورأسه داخل النافذة الأمامية أن أطمئن.

بقعتان حمراوتان كبيرتان توسطتا وجهه ببشرته الحليبية الناشفة. انتابتني هواجس ومخاوف عنه أثناء طريق عودتي إلى البيت، كنت أخفف السرعة؛ بدا لي مريضا، بيد أن عقلي خفف الأمر عني مرجعا حالته إلى حرارة الطقس. بقيتُ في طريق العودة إلى البيت أتحسس حماوة خدّه على شفتيّ عندما قبلته مودعة.

لم يمض وقت طويل على وصولهما إلى الأردن حتى انتكس واحتار أسعد في أمره. لم تتوفر لنا الوسيلة لمعالجة الموضوع. اضطر أسعد إلى السفر خارج عمّان لإجراء مقابلة عمل. أخبرني أنه سيُجبَر على تركه مع ابن صديقٍ له التقى به مصادفة في فندق كان جلّ نزلائه من العراقيين.

علمت فيما بعد أن ثلّة مراهقين مزعجين ضايقته في غرفة الفندق، ومرضَ على إثرها. كان يتقيأ باستمرار، ويرفض ما يقترحه عليه أسعد. إنها المرة الأولى التي يبتعدان فيها عن البيت. كان الكثير قد اهتزّ في حياته جراء تلك السفرة التي صعُب عليه سرد تفاصيلها لي. لم يستطع

الحديث معي على الهاتف. قال لي في مكالمة وحيدة وبصوت خفيض أنه كتب لي رسالة. كانت رسالة بخط يده عثرتُ عليها لاحقا وبكيت. فهمت أنه واجه أمرا صعبا ومخجلا لباقته التي عُرف بها بيننا والتي يشير إليها الأصدقاء بزهو وإعجاب لم تُعنه في مصارحتي بالأمر. أسعد يرغب في البقاء لفترة أطول لاستكشاف الوضع بمعونة بعض الأصدقاء وإثر التحقيق الذي أجري معه عند الحدود لن يجازف بالعودة. قال بالحرف إنه تعب من الحال وفقد صبره مع سلوان.

حالة أبي الصحية بالمقابل كانت في تدهور. استعنت بأمي التي حاولت الاتصال بصديقتها. جارتها القديمة التي كانت مقيمة في الكويت. اضطرت بعد اجتياح الكويت إلى الانتقال بشكل مؤقت مع بناتها الثلاث وولديها إلى عمّان. لم يكن العثور على من يوصلنا إليها سهلا ولكن أمي نجحت أخيرا في مسعاها. العائلة لم تستقر بعد، ولم يصل الأثاث الذي كان محجوزا بين طوابير السيارات والشاحنات القادمة من الكويت على الطريق البري. ولكنها رحّبت بسلوان كحفيدها وجعلتني أطمئن عليه تماما.

بقي سلوان لأسابيع في أحضان هذه العائلة. أسعد بزياراته له ينقل إليّ قلقه عليه لفقدان وزنه وشحوبه، لكني كنت أطمئنه إذ بدا سلوان بمرور الوقت أكثر استقرارا. أحسست بذلك عبر المكالمات التي سمعت خلالها صوته. البنات اللاتي شملنه بعنايتهن في تلك العائلة أكّدن لي استمتاعه بدلالهن.

نظرات سلوان معجونة بشيء لا أعرف أن أحدده. هو لا يوجّهها إليَّ مباشرة. يَعمَدُ إلى تركها واضحة كل مرة وينهض مغادرا المطبخ. كأنه يناولني إياها مع الصحن الذي انتهى منه. كأنه يسلّمني إياها في ثنايا بيجامته الملبوسة، في الكتاب المفتوح في المنتصف على سريره وفي شعر لحيته المتساقط في حوض المغسلة. له قدرة عجيبة على جعل الصمت حاضرا، قويا، بيننا نحن الثلاثة. لا يجيب أو يعلّق. نتناول طعامنا بصمت بينما يبقى هو منتظرا، بلا حراك وكأنه يرقبنا خفية. أحيانا أشعر به يتعمد إيذاءنا، يُمعن في جرحنا. وكأنه يجبر أباه على إبقاء وجهه في الصحن حتى ينهيه لينهض على عجلة من مكانه. يبدو لي ناقما، يُبدع بإيلامه من أجل أن يكون لهذا الصمت لسان ساخر فاضح يدين بقوة عجزنا.

هو الملاك، هو الأثير. أتمتم مثل المتسولات في الزوايا، ألمح جانب وجهي في المرآة بمروري فأتذكرها منفصلة عني، بشعرها من لون شعره الكستنائي وقامتها التي انكمشت أمام قامته وحواسها التي تخلّفت في مكان بعيد، تتشمم ثنيات رقبته ولعابه وعرق رأسه.

أمعن بوجهه فتصيبني حرقة في معدتي. كيف ولماذا؟ وأين اختبأ كل هذا ليبرزَ لنا فجأة ويشلّ ألسنتنا؟ كما برز كل هؤلاء الأمراء والولاة وامتلأت آذاننا بأخبار الذبح والترهيب. من حرّك كل هذه البشاعة، لماذا نحن؟ لماذا في هذه البقعة من العالم؟

اختطفـوا أسـعد أثناء عودته مـن عمله. كان الجو في البيت يسـتعيد بعض الصفاء عندما وصلني الخبر. لم أفهم حرفا عندما اتصل بي زميل لـه ليبلغني بالخبر. أعادهُ عليّ ثانية، أحد الطلاب شـهد عملية الخطف وأسـرع ليبلّغ الأساتذة خفية. صفير رفيع شوّش على مسامعي فشعرت بألم حاد في أذني، رافقه شـعور بتنملّ جانب من وجهي انتشـر سـريعا فـي أطرافـي. لم أقدر على النطـق أول الأمر بكلمة، كيف سـأتصرّف؟ قال زميله المنفعل على الهاتف إنه سيبذل جهده من أجل مساعدتنا في معرفة الجهة التي اختطفته والباقي بيد الله. مَن، كيف، لماذا؟، «أسـعد لم يكن الوحيد الذي استلم رسائل التهديد» ولم يشأ أن يُطيل التحدث عبـر الموبايـل، قالهـا بصوت مرعوب، يجـب أن يسـرع الآن، عليه أن يفكـر مع زملائه بالقضية. تخيلتـه ينتفض هو الآخر مثلي. انقطع الخط أو أن المكالمة انتهت.

بقيـتْ يـدي متقلصـة على الموبايـل لفترة وأنـا جامدة فـي مكاني. كان الوقـت مـازال ظهرا وما زال هناك أمل فـي أن يكون كل ما قيل لي قبـل لحظـة على الهاتف محض خطأ أو اشـتباه. لربمـا اجتاز الآن ممر

الحديقة. وحده الذي اعتاد أن يغلق الباب الحديد الصدئ ويعيد «السقّاطة» إلى مكانها بطريقة لا تصدر صوتا البتة. ها هو المفتاح يدور في قفل الباب الخشبي الداخلي ليدخل الصالة بقامته العالية محمّلا بكيس التبضع والجريدة والخبز اعترضُ دوما على غسل يديه في حوض الغسيل في المطبخ فيغادر من دون تجفيف يديه تاركا رائحة الشمس والتراب والعرق عالقة في الهواء من حولي. تتوتر أذني التي آلمها الصفير أصغي فأفاجأ بسلوان قربي ممتقع الوجه لا يقوى على الوقوف في مكانه. أسنده حتى نصل التخت لنتهالك عليه معا.

منتصف 2006

أتبعه خفيةً، أتنصّت وأتلصّص عليه. لا لستُ مخبولة ولم أكن مخطئة. أمسكتُه في محاولته الثانية للانتحار. هرعتُ وتشبثتُ به وطلبتُ منه بضعفي الغبي أن يجدَ لي طريقة للتخلّص من حياتي إن كان مقتنعا بلا ضرورة حياتِه بيننا. صرختُ به وأسرعتُ من دون وعي إلى المطبخ وجئتُ بالسكين، شققتُ ثوبي أمامه وقلتُ بهياج «هيا، لنفعلها معا ولكن أنا أولا إن كنت تنوي ذلك حقا». انهارَ فحضنتُه وانخرطنا إلى الأرض نبكي معا وأنا أقبّلُ رسغَه الذي رفَعَ الضماد عنه. ألقي بموس الحلاقة بعيدا. فجَعَتْني يدُه. أقبّلُ جبهَته، شَعرَه، خدَّهُ ورقبته وأمسحُ خديه بيديّ وأحضنُه وأجهش مولولة.

كان وجهه خاليا من الدم مخيفا بشحوبه. كدت أفقده ثانية. ياإلهي، من أين جاءته الفكرة؟ ما به؟ ويلي وويل أسعد، أريد لصرختي أن تشقّ السماء، وجهُ ميت بين ذراعي، غائب تماما، أخذت أضربُ خدَّه بيدي، صرختُ بوجهه صرخة طويلة ليسمعني. أين نحن من ذلك، ما مقدار الغباء الذي ننعم فيه، بِمَ يفكّر وكيف توصّل إلى فكرة الانتحار وكيف عمَدَ إلى تنفيذها ثانية؟

محاولته الأولى كانت بعد أسبوعين من نجاة أسعد من الاختطاف وعودته إلى البيت. بدا طيلة الوقت مذعورا مني ومن أبيه. كنت أدثّره في فراشه وأبقى إلى جانبه. عاد كما كان، طفلا يقضّ خياله الخصب مضجعه لكثر مطالعاته في تلك الموسوعات وقراءته للكتب التي تقع بين يديه. يرى أشباحا ووحوشا ودياصورات ولصوصا فينادني فزِعا منتصف الليل.

قال لنا إنه كان يرى المختطفين عبر النافذة، يراهم وهم يحاولون الدخول إلى البيت. يتبعوننا حتى في ذهابنا إلى الطبيب وعودتنا. الجيش والشرطة والمختطفين الملثّمين كلهم يتربّصون به ويريدون قتلنا جميعا في أسرّتنا. سمعهم يدبكون على سطح غرفته بإنزال ضخم مسلّح حوّط البيت في غضون دقائق. أكّد لنا بصوت خفيض إنه سمع حركة سحب الزناد وأوامر الاستعداد لإطلاق النار.

كان شريان يده ينزف، عندما صرخ أسعد بأعلى صوته يناديني إذ وجده فجرا في المطبخ ممدّدا على الأرض. غادرَ قلبي مكانه، علمتُ فورا أن الأمر متعلق بسلوان، فقفزت من السرير. شهقتُ من رؤيتي لدمه وهو يسيل، ولا أعلم من أين جاءت أسعد القوة ليتماسك. تناول المنشفة من على الكرسي وشدّ رسغه ثم رفع جذعه ليتكئ عليه. ارتديت ثوبا وخرجتُ إلى المرآب. لا أدري إن كان في السيارة بنزين بعد وإن كانت ستتحرك من مكانها، وإن كان الطريق مفتوحا والتجوال مسموحا به، ولكني قررت أن أقود السيارة بنفسي، رغم أن أسعد طلب مني الاتصال بالدكتور حسام فورا للمجيء. ماهو خارج البيت كان أشدّ رعبا وخطورة. تجاوزنا الطرق المقطّعة والمناطق المسدودة

والمفارز المتعاقبة وكشافات الضوء الضخمة بأدنى سرعة كي لا يُشكّ في أمرنا. خلالها كنت أرقب وجه أسعد في المرآة أمامي لأطمئن إلى الوقت المتبقي لدي.

خرجنا به سالما من المستشفى. تدبّر أسعد حلّ تبعات المعضلة. اتصل الدكتور حسام بمضمّد يعرفه وحضر الاثنان بالسرعة الممكنة في ظرف صعب وأُقفل الموضوع.

بعد اختطافه أغلق أسعد الباب عليه مخفيا معاناته ومخاوفه. شعرنا أن الخطر مازال محدِقا بنا، وأن مجهولا يترصدنا. أستيقظ مرعوبة عطشى في مكاني على السرير ليلا. سلوان يلح عليّ في منامي. أوشك أن أخنقه بالوسادة ليكفّ عن ترديد مقولات أبيه. أجد نفسي أجرّحه بتهديدي له كي يكفّ عن تقليد الآخرين وهو ساكت لا يرد. في صحوي أطالبه بألا تغيب عن باله حقيقة أننا نعيش حياةً أفضل بكثير من غيرنا. يستدير نحوي ليلقي جوابه في وجهي «هذه القناعة تثير اشمئزازي»!

لا تعينني غير نصف حبة منوّم يناولني أسعد إياها مع قدح الماء. أخشى كلما ابتعدت قليلا أو أخذتُ غفوةً أن ألتفِتَ فلا أجد ابني.

نحن لا نتشاجر، وأسعد مثل سلوان لا يقوى على سماع الزعيق والأصوات العالية. نشأ في بيت صغير مع أمه وأختين تصغرانه بالسن اعتدت أن أشبههما بالراهبتين. لكن صوتي علا كما لم أفعلْ من قبل، أو أني صمّمتُ على أن أصرخ، أن أفقدَ السيطرة تماما وأشتطّ وأجرّح حنجرتي وأجنّ. تنقلت من مكان إلى آخر في البيت أنزع المتسلقات

التي وجدتها قد نَمَت في غفلة عني، صعدتْ وتهدلت وتفرعت. أنزع وأقطع بكل قوتي الأغصان التي حوّطت أطر اللوحات وتشبثت بسكك الستائر والتفّت باصرار على المسامير خلف اللوحات. ليس هناك من يوقفني. الحبوب التي يتناولها سلوان تعزله عن العالم وأسعد أصابه الذهول. «بيت مجانين، بيت مرضى، بيت موتى» أصيح بأعلى صوتي.

كانت حياتنا المتأرجحة بين اليسر والفقر، البدائية والعصرية في كل جوانبها تتطلب أكثر من يدين اثنتين فأشعر أنني أشيخ. الأشياء متداخلة بفوضى أشعر بها تمتد إلى جسدي. لا يمكن تحديد العصر الذي نعيش فيه. الغسّالة موجودة ولا ماء ولا كهرباء كافيان لتشغيلها، دخل علينا عالم الإنترنت بينما ماء الشرب معدوم، دخول المستشفى مخيف، مهام توفير قناني غاز للفرن همٌّ، تعب المداورة بين الكهرباء الوطنية والمولّد مهزلة أخرى جديدة. بودي لو تسوّد هذه الشاشة وتكتم صوت تلك الحرية المضحكة التي يتحدثون عنها، بينما الخيار الوحيد هو انزواؤنا في البيوت. الأمان صار المطلب الوحيد. كثرت مخاوف الأصدقاء، ومعها كثرت نصائحهم لأسعد بأخذ الحيطة والحذر. كان بودي أن أصرخ بأعلى صوتي. أريد أن تبرد النار التي راحت تشبّ بي، أن يصفو ذهني ويهدأ بالي؛ هذا ما يتمناه أسعد لي وما تطلبه أمي مني وترجوه عينا سلوان، ولكن كيف؟

في زياراتها القليلة لي تحاشت أمي الحديث المباشر عن إهمالي لنفسي. اكتفت بإلتلميح إلى ضرورة التنبّه إلى مظهري. كنتُ أنحف وروحي تنشف بمرور الأيام: «لم يبق منكِ غير عود يابس». أقرأ وجهها جيدا وهي تمعن النظر في جسمي. تشير باستغراب إلى قلّة أكلي

وشـحوب لونـي. لا أبالـي بما تقول طالبـةً منها أن توفّر عنـاءَ الحديث في هذا: «لستِ الوحيدة». ينفد صبرها ولكنها لا تجرؤ على توبيخي. أفهـمُ ما تعنيه. نعم نعم، أحفظُ كلماتَها وكنتُ شـاهدةً في صغري على طقوسـها. كانت وما تزال تودّعُ نهارَهـا بطريقتها الخاصة. تذهب بتهيؤ تام وبعنايةٍ فائقة إلى فراشـها، معطّرةً، حاسـرةَ الرأس، ممشّـطةَ الشعر، بثوبِ نومٍ مغسـول ذي ألوان فاتحة لا يحدث أن رأيته نهارا. تفعل هذا إن كانـتْ متزوجـة أم مطلقة. تفعله لنفسـها. كل ما تفعله تفعله لنفسـها أولا كنُت أنبـشُ في جواريرها ورفـوف خزانة ملابسـها لأتفحصَ ما تخبّـئ من ثيـاب وقطع صغيرة ملونة من النايلون. أمسـح بأطراف يدي ذرّات البـاودر المعطّر المتسـاقط على الأرض قريبا من مرآتها، أتنشّـق رائحتَها النائمة في خشـبِ الخزانة وأمسّ بقع زيتِ الشـعر التي تشرّب قـاع الجارور بها. لا أذكر غير صورتِها ليـلا وأنا طفلة، تدندن بكلمات ولحـن غيـر مفهوميـن كأنها لوحدها في هـذا الفضاء، في هـذا الكون. حينها أشـعر أنني لا أمتُّ إليها بصلة، بعيدةً عنها، وهي غير مكترثة بي، أمكث لصقها، مجرد ريشـة صغيرة سـقطت من جنح عصفور للتو، من دون صـوت، غير آبهةٍ سـوى بعطرها الذي يدنيها مـن ورد ملكة الليل. حتى الليل كانت تُحضِرُه حين تعتلي كرسـيا صغيرا لتسـتبدل المصباح بآخـر أزرق صغير فتجعل مـن الدخول إلى مملكة النوم احتفالا يميّزها عن البشر.

أدور حـول نفسـي. أدخـل الحمام لأغرف مـاءً أدلقه على رأسـي. أدفن وجهي في المنشفة. هو خارج للتو من محنة. لا ذنب له ولا حول ولا قـوة علـى ما نحن فيـه. اختفى صوتـي. ارتعبتُ فـي داخلي لفكرة

أن يغـادر البيت فـي حالة كهذه. صحـوت، ما الذي أصابنـي؟ لم يكن وقـت مشـاجرات، لم يكن وقت حسـاب أو لوم وحساسـيات، افتحي سـاقيك، كل شـيء قابل للتمرير الآن يا حمـارة. أي غباء! كيف حصل إني صرختُ بوجهه؟

لم ينتبه لشيء إلا لشَعري الذي قصصتُه أمام المرآة على عجلة. حَزنَ عليه متساقطا أمامه على الأرض، وضحكتُ أنا بسبب حزنه لأني كنت أوفّر الوقت لأمور أخرى. سخرتُ منه. تملكني غضب. أَلَمْ يُلفتْ نظرُه غير شَـعري. «أعتذر، يبدو أنني تناولتُ جرعـةً كبيرةً من التغيير»، قالها بطريقتـه المعهودة التي لم أعد أحتمـل توقيتاتها ولم تزدني لحظتها إلا اشـتعالا كنت أنتفضُ وأعرفُ أني لن أستطيع التوقف، مثل مرجل في طريقه الى الانفجار. ألقي عليه بالكلام الأشدّ إيلاما وأترك له الغرفة.

لو كان للنوافذ لسانٌ لروتْ قصصا شتى عن هذا البلد. تُغلَق، تُفتح، تُطيَّن، تُسرَق، تُردم. منذ مدة أزاح أسعد عددا من ألواح الخشب التي أغلقنا بها النوافذ، صانعا من زاويةٍ في الغرفة مكتبا يحوي بعضا من كتبه وأدواتِ رسمه. كان قد أهمَلَ لفترة طويلة اهتماماته وضيَّع الكثير من طقوسه. لا شيء يكتمل بين يديه. لجأ إلى الكتابة وكأنه مُحرَج. كان يريني ما يكتبه من مقالات في الأدب والموسيقى والفن في أول حياتنا معا، ثم انقطع.

لم يكن مقتنعا يوما بشيء. لم ينشر سوى القليل. كان يخطط أو يحلم بتخصيص وقت للكتابة مستقبلا متى؟ عندما تحين الفرصة. متى تحين؟ سنرى. ولم أسأله عما كان يكتبه. لا قوة عندي للسؤال ولا همّة أو فضول. كنت خالية من اهتمامي القديم بشؤون معينة تخصه، لكني أومأت إليه «على الأقل تنشغل في شيء». إن كان يريد أن يكتب عما نمرّ به فأنا على العكس مع التمرير والنسيان.

تقلصت الحدائق أو ألغيت؛ «تلك الأشجار كانت تلوّح بأيديها من عمق البيوت خلف الأسيجة»، كلّي إحساس بما يقوله ولكني لا أريد

سماع كل هذا. وتقلص استخدامنا للبيت الكبير حربا بعد أخرى، ما عدنا نستخدم سوى غرفة النوم والمكتب إضافة إلى الصالون الصغير والمطبخ. أُلغيتْ الصالة الكبيرة وهُجِر الطابق الأول بغرفه وحمّاميه. أوصِدَ الباب إلى السطحين تماما، وجرى تلحيم الباب الخلفي المؤدي إلى الحديقة الخلفية. أُهملتْ الحديقة الكبيرة والطارمة والأرجوحة والتنور خلف البيت والمرآب بالتدريج.

توفيتْ أم أحمد بعد بضع سنوات من زواجي. ولولاها لما احتفظت ذاكرتي بشيء. هي التي رعتني في طفولتي وشبابي من على مبعدة دوما. تحركنا جميعا سوية وكبرنا بالحرص ذاته على المسافة المحسوبة بيننا. حافظت على البيت وخلّفت وراءها لمسات كلُّ مَن سكَنَ ومر به.

كنت قد أتممتُ الدراسة المتوسطة في مدينة العمارة، ثم انتقلنا إلى بغداد أول السبعينات. الكرادة مكانٌ جمع بين القدم والحداثة ما جعله يبدو أليفا آمنا بالنسبة إلي منذ الوهلة الأولى. جئت لأكمل دراسة الثانوية وتعليمي الجامعي وفق ما خططنا له أبي وأنا. كانت تجارته ومصالحه تنسجم مع خططي حين اشترى البيت. فَهِمَ الجيران رغبةَ أبي عموما في العزلة. لم يتدخل في حياتي إلا في ما يضايقه هو ويقترب من حياته الخاصة. فَرِحَ بدخولي الجامعة وأشعرني بأن كل ما تمناه لي قد تحقق.

كان زمنا جميلا رغم كل شيء، مرّت أيامي خلاله هادئة آمنة، أتابع عبر ثقوب سياج السطح الأول للدار ما يدور خارجا.. مرور موكب جنائزي لشهيد يتقدّم فيه الشمّاس الأهلَ، يتبعون نعشا بصمت وخطى بطيئة إلى الكنيسة خلف بيتنا، يجذبني تارة صخب عرس وانحشار

طابـور سـيارات مع عزف المنبهـات في الزقاق الضيـق المجاور وتارة عراك جارتين يفضّها الحاج صاحب الدكان في زاوية الشارع.

بزواجي وانتقالي تُرِك كل شـيء على حاله. عدتُ وسـكنت فيه بعد المـرض الـذي أقعد أبـي. ترك لنا أبـي الطابق الأرضـي وانعزل هو في الطابق العلوي حتى وفاته. عدا عن حرصه على استقلاليتنا فقد تمسك حتى الأخير بسخطه على الأنظمة المتعاقبة التي حكمتنا والحياة التافهة التي نحياها. كان يجد أملا في أن يتطور النظام الملكي بخلاف ما أعقبه مـن حكومات. كل ما قرأتـه في دروس التاريخ والوطنية في المدرسـة كان مخالفـا لتجربتـه هو فما خسـرته العائلة من أمـلاك توارثتها أبا عن جد كان برأيه خطأ فادحا لا يغتفر، مصادرتها وما سُمي إصلاحا زراعيا كان يتعارض حتى مع الشـرع. عبّر عن اسـتيائه المزمن في حبّه لوحدته عندمـا لا يكون قادرا على الانضمام إلى شـلّته. يكاد يرفض أي تواجد في حياتنا. كان يردّد كلما دعاه أسعد لمشاركتنا جلساتنا أو للقاء ضيوف جاؤوا لزيارتنا أن المنسحبين والمهمشّين هم الحكماء.

لـم تكـن لدينا التزامات، لا هو ولا أنا إلا فيمـا ندر. أبعدني أبي عن عائلتـه أيضـا التي اختلف معهـا وتركها خلف ظهره. ولـم تكن لي غير علاقات محدودة بصديقتين أو ثلاث من المدرسة والجيران. لم أعرف عنـه الكثيـر الذي يخصّه هو. أعرف عنه حبّه للسـفر، مـن خلال ما عاد به في سـفراته من إيطاليـا، الهند وتركيا وتشيكوسـلوفاكيا، وأعرف فيه اهتمامـه الكبير بمظهره من الأحذية الجلدية التي تُخاط باليد خصيصا، البـدلات المسـتوردة والقمصان الحريريّـة التي يأتي بهـا «المكوجي» نظيفة مكوية كل أسبوع. لكني لم أعرف الكثير عن أهله، وعن أصدقائه وقصص شبابه.

عندما قصدتُ «الجرداغ» يوما لأسأل عنه بعد غياب دام ليومين غضبَ مني أشدّ الغضب. كنت قلقةً عليه ولم نتوصل أنا وأم أحمد لغير قرار التوجه إلى المكتب من أجل سؤال وكيله هناك؛ «أنه ولا شك في مكانه المعتاد مع التجار»! امتنع في البدء ولكنه بعد أن رفضت التحرك من مكاني اضطر إلى غلق المكتب ومرافقتنا إلى المكان بدلا من أن يدلّنا على العنوان.

أوقفنا على مبعدة من الشاطيء وتوجه نحو العشّة التي لاح لي حصير سياجها من بعيد. لم تمض دقائق حتى برز ثانية مع أبي الذي توجه نحوي بخطوات جدية سريعة. طلب مني العودة على الفور إلى البيت برفقة وكيله الذي أومأ له أن يتحرك. صرفني بوجه متجهم وكنت قد قصدته لأتأكد من سلامته. لم أتوقع ردة فعله عند عودته إلى البيت. لم أحتمل قسوة ما اتهمني به بعد أن نادى عليّ بلهجة آمرة لأنزل إليه من غرفتي. سألني عن سبب كسري لقوانينه وعصياني له في حين أن ما فعلته كان بسبب قلقي عليه. بيد أنني التزمتُ الصمت، أطرقت برأسي الى الأرض وآثرت ألاّ أجيبه.

كنت أخشى حقا فضولي في التعرّف على حياته خارج البيت، مع مَن يتسامر ويسهر معهم على شط دجلة، وما يجري تحت سقيفتهم هناك. صور مريبة أبقيتُها غائمة في فكري أخشى البحث والتقصّي فيها. أبقيت تصوري محبوسا في داخلي كجزء من توازن ضروري كنت أنشده دوما.

من الغريب أن أسعد كان يميل إلى إضفاء نوع من الخيالية وشيء من الإبهار على سيرة أمي وشخصيتها. تثير المسافة بيني وبينها عجبه وتدعوه أحيانا إلى لومي. كنت أقول له إن للإختلاف الكبير بين شخصيتيْ والدته ووالدتي أثرا في ذلك. المرحومة أمه الطيبة المسالمة السمحة الساكتة والأسرار المخبأة في عينيها الشهلاويتين، وأمي العصيّة الجسورة العنيدة، بدخان سيجارتها ورأسها المعصوب بالقماشة السوداء اللامعة وأثر الوشمين على جانبي حاجبيها تغطيه كشاكشها المفتولة على الجبهة.

ولم ينقذ أسعد من الموت غيرها حين تمّ اختطافه. اتصلتُ بها فاقدة الأمل في إيجاد طريقة ما لانقاذه. انتهيتُ حينها إلى أن أسعد لن يعود لنا وإني لن أقاوم وسط هذه المحنة، بل قد أفقد ابني أيضا. من أين لي الخبرة لأتصرف بحكمة في موقف لا يتخيله عقلي. القصص التي كانت مجرد قصص لهولها تجسمت تفاصيلها أمامي. هل سأجده جثة مشوّهة في مشرحة، أم معروضا على شاشة. لا أعرف طريقا لطلب المساعدة. لا أعرف الأحزاب الدينية التي قد ينتمي إليها الخاطفون،

ولا أعرف المليشيات المسلحة التي يتحدثون عنها. درتُ ليلتها في البيت مثل طريدة، وعيني طوال الوقت على باب غرفة سلوان المخدّر.

حضر أخي أولا بدا هو الآخر جزعا مثلي. ظلّ معي، يحرسني، يحاول أن يسدّ عني احتياجات البيت قدر الإمكان، يردّ على المكالمات ويطلّ على سلوان بين الحين والحين. ما شغله هو تهوية البيت الذي تشبعت زواياه بدخاني كما يقول. نتكئ هو وأنا على التخت في الصالون جالسَيْن على الأرض، رأسانا إلى الوراء لا نقول إلا القليل. كان يعرف أن لا ارتباط لأسعد بجهة سياسية ما ليتمكن عبرها من التقصّي والسؤال عنه. وهو مِثلي لا يعلم لِمَ تعترضه الحياة هكذا دوما. يرى أنها تسيّرنا كما تريد من دون أن نفهم. لكن أمي هي التي تحركتْ من دون علمي لتتصلّ بأهلها وعشيرتها، من البصرة إلى العِمارة، من ثم إلى بغداد. كانت تعلم أني لا أعرف شيئا عن العشائر ونظامها، تلك أمور بعيدة جدا عن حياتنا، قصص ماضٍ تجاوزناه أو أنكرناه كما قال أسعد، باتت غريبة عليّ لا كيان لها في الواقع، وإن تحدثوا بها، فإنها تبدو لي تماما مثل فكرة قديمة، أو جزء من عادات ريفية لا مكان لها في المدينة. لم أعرف أن أمي مازالت تغذي تلك العلاقات وعلى تواصل مع أهلها.

كنا نُلازم سلوان والشمس قاربت المغيب عندما وصلتْ إلينا مجلّلةً بالسواد اللامع الأكثر عربية وعشائرية وخشخشة مما اعتدتْه في لباسها اليومي. تجاوزت بنظرها أخي ولم تُقبل عليّ لتحضنني. أخذت منها الحقيبة وابتعد كل منا إلى جانب لتستريح على التخت. كان عطر زيتها الخاص وزيها إعلانا عن حالة حرب ستخوضها، ذكّرني ذلك بصورٍ غائمة بعيدة من طفولتي. ارتداؤها لذلك الزيّ أنبأ عن خَطْبٍ عظيمٍ ألمّ بها.

هي لم تتقبل أسعد في البدء. ولا أظنه اعتراضاً على شخصه بل لأنها بزواجي واجهت حقيقة انعدام الفرصة تماما في استرجاعي إلى حضنها. هل كان هذا حُبّاً بي أم انتقاما من أبي؟ لا أدري! كل ما علمته أن أبي كان قد كسبَ قضية احتفاظه بي حين تزوّجتْ ثانية. أعرف أن مكابرة أبي كانت ممهورة بلقب عائلته الكبيرة رغم عدم اعترافه بذلك. كما أدرك انها تقبّلتْ هزيمتَها بشعور من بغضٍ شديد تجاهه لم ينقص يوما ولم أستطع أن أسامحها عليه. تركتْ مدينة العمارة لأهلها وهاجرتْ مع أبيها لتتزوج من جديد في البصرة. لم تشعر بالارتياح إلا بعد وفاته. كانت فرصتها لتُلقي عنها عبءَ مشاعرها تجاهه وتجاهنا معا. ولكن الوقت حينها كان قد فات لكي تبرّر لي كل ما مرّ في حياتها أو حالَ دون تقرّبها مني. لم أشعر انها اغتنمتْ كل الفرص لتشرح لي الأمر أو تطلب المعذرة مني حول فصل أمٍّ عن ابنتها. لم أعش معها علاقة الأم والبنت المتعارف عليها. لا أملك رابطة تدلّني على التعامل معها غير ما يربطني بسلوان وما أشعر به تجاهه، أقارن عبره علاقتي بها ولا يعينني ذلك كثيرا. ولدتُ سلوان لوحدي وكان لي وحدي. كل أشكال المقارنة صعبة بالنسبة لي، ولا أعلم شيئا عن مشاعر أخي الأصغر تجاهها. كنت أرقبهما في كل لقاء لي بهما معا. أتفحّص النظرات وأقيس المسافات بينهما. إنه أكثر طبيعية مني معها، أكثر حبا لها بكثير، وأكثر غضبا منها. لم يكن لدي ما أقوله لأخي حين يحدثني عنها، كما أتفهم قسوته تجاهها التي تحدثني عنها. لا أظنه قاسيا. يبدو حنونا ومطيعا ولكنه ابتعد عنها بعد قرارها الزواج للمرة الثالثة. إني أفكر اليوم بحقيقة أخرى تخصّ حاجتها للإرتباط برجل، قد تكون بمثابة محض استراحة من العناء الذي تتجشّمه في سبيل إعالةِ نفسها.

تحممتُ سريعا وشعرت بنسمة صباحية باردة وأنا أغادر الحمام بثوبي الخفيف منتظرة أن يصحوا. استبشرتُ بانكسار حرارة الجو وكدتُ أدير الراديو حالمة بالتقاط محطة بعيدة مختلفة عن محطاتنا المحلية. انطلقتْ صرخةُ امرأة من بيت في الجوار، لم تكن الصرخة بعيدة، أصابتني بالهلع فركضتُ إلى سلوان لأتأكد من نومه. أعدتُ إغلاقَ الباب بحذر وركضتُ لأغيّر ملابسي في الحمام. تلتْها صرخةٌ أخرى فارتبكتُ. تعالى الصراخ المفجع وقرُبَتْ الأصوات وجسمي يهتزّ ويداي لا تقويان على إنزال الثوب الذي لم يشأ أن ينزلق على جسمي. فتحتُ باب الصالة وركضتُ حافية عبر ممر الحديقة إلى الباب ناسية ربطة رأسي. جارنا في الفرع الثاني كان يركض مولولا علمتُ أنه وجد ابنه الشاب الذي انتسبَ حديثا إلى الشرطة مقتولا أمام باب البيت عند خروجه في طريقه إلى العمل.

دخلتُ البيت مسرعة وأوصدتُ الباب. أصوات الصراخ تزداد وتتعالى مع إدراك الفاجعة. بقيت في مكاني خلف الباب وأنا ألهث، ألهث وقلبي يضرب بقوة - حالة شعرتُ أنها باتت تتكرر. إن أنفاسي

تتسارع وكأني في عدو مستمر برغم أني قد أكون ساكنة مثل جماد. رفعتُ باطن قدمي لأزيل حجارة صغيرة انغرست في لحمه. هدأتُ وانتظمتْ دقات قلبي. إني فارغةٌ من الحزن. عمدتُ إلى تذكير نفسي انه ابن الجيران وليس ابني. قصدتُ المطبخ وأدرت المذياع وارتحت لعثوري على أغنية. شربت قدحاً من الماء ورفعت الصوت أكثر، أدرت الماء المغلي في إبريق الشاي قبل أن أغيّر خطّ الكهرباء. سقط من يدي غطاء ابريق الشاي وانكسر إلى نصفين كاملين. أم أحمد ستحزن في قبرها. إنه ابريقها الصيني الصغير المفضل، برسوماته الدقيقة لبيوت صينية وأغصان متدلية عارية بالأبيض والأزرق. كانت تحبه لأنه من خزف رقيق خفيف الوزن جدا. لم أكن أشرب الشاي، لذا كان حجمه يكفي لتعد فيه شاي العصر لأبي ولها. تناولتُ النصفين من على الأرض وأغلقتُ بهما فتحة الإبريق فبدا قطعة واحدة. تلفتّ من حولي وقد نسيت ما شرعت به. تنبهتُ إلى غياب أسعد. ظننته تبعني إلى باب البيت بعد كل هذه الجلبة. عدتُ مسرعة إليه في الغرفة.

«بغداد مثل ذبيحة خرجتْ أحشاؤها فأثارتْ معدتي، كل شيء آخذٌ بالتعطّل في ظلّ إيمانٍ واهٍ غريب بالأمل، لسنا سوى أهداف مجانية والمارة مفخخات حسب، بينما يطبّل الجميع لحريتنا». سَرَتْ بي رعشةٌ لمنظره الجامد وهو جالس أمام طاولته الصغيرة ممسكا بقلم الحبر. كأن صوته لا يصدر منه، وطريقة تلفته نحوي أشعلا جزعي مرة واحدة. ضرب رأسي صداع فجائي حاد. طلبت منه ترك الكتابة هذه والنهوض لنتناول فطورنا. هزّ رأسه رافضا وعاد متابعا من دون أن

يرفع رأسه. تناولتُ الربطة لأعصّب رأسي وأستديرَ عائدة إلى المطبخ لأستجير بحبتَيْ مسكّن.

يطبق الغروب على صدري. منتهى الصمت يُبرّزه صوت المذياع ينبعثُ خفيضا من غرفة سلوان. قراءة نشرة الأخبار على وتيرة واحدة. قِدر شوربة الرز بالطماطة ينتظرُ على الفرن. الصحون الثلاثة والملاعق الثلاث على جانب من الطاولة. صمتٌ له لون دخان ينزل ويتكثف في جوانب المطبخ، على الخزانات والجوارير والساعة المعطّلة على الجدار.

الحرّ شديد. أغلّفُ صحنَ الخضرة الذابلة وأعيدُه الى الثلاجة التي صارت تشبه خزانةَ ثياب بعد أن أنهكها وضع الكهرباء. الضوء شحيح وبقايا نُواح من الجيران يتسلل إلى أذني. أطفأتُ سيجارتي الأخيرة في المطبخ وعدتُ إلى الغرفة لأريح ظهري.

كان مستلقيا، ما زال مستيقظا. جلست على حافة السرير. «الوطن باتَ مقبرة». تمنيتُ لو يكفّ عن ترديد هذه الجمل الوطنية التي يكتبها وتجعله سياسيا قادما من الفضاء. الكتابة صارت تبعده ذهنيا عنا. أخذ مؤخرا يرزم الورق الذي يتكدس فوق بعضه ليضعه جانبا على طاولته. أصعد على السرير وأدنو منه. يؤكد لي أنها مجرد جُمَل وخيالات تتردّد في رأسه لتبدد خوفه حسب. عيناه في السقف ويده جانبا تمسّد ساقي بآلية، تدور أصابعه وهي تتحسّس ركبتي. يتملكني عطف بالغ عليه فأضع يدي على يده. يقول إنه في حيرة وقلق. «عليكَ أن تتصل بالمسؤولين في الجامعة». «بخصوص ماذا؟». «بشأن ما حصل حول الاختطاف». «لن ينفع، سأكون معاديا إن انتقدتهم». «كفّ عن ذلك

إذاً، لِمَ توجع رأسك، يجب أن نُعلمهم بذلك». «اطمئني، انهم يعلمون جيدا كل ما يدور». «هل يمكن أن يكونوا هم من يقف خلف ذلك؟ ربما أسرفتَ كثيرا في توجيه انتقادات ضدهم؟». يشعر بحيف لأنه كان وفيا وبرغم ذلك يبقى مدانا. يُدني رأسه ليضعه على فخذي ويطوي جسده ملتصقاً بي. يقول لي إنه خَدَمَ بكل ما عنده من إخلاص وحب. أحني جذعي وأمسّد ظهره، وكأني في كل حركة أمسّ جرحا مفتوحا. ينبت خده غير الحليق مع أنفاسه الحارة على لحم فخذي. الطريقة التي تمّ اختطافه فيها خلّفت فيه انسانا معطوبا يسير في البيت مثل آلة. يكرّر لي الأمر ذاته حول اختناقه في صندوق السيارة الخلفي وضربات الرأس الموجعة والرفسات التي تلقاها. «وكأني صرتُ حيوانا بدأت تنبعث منه رائحة ذعر لأقلّ ما يحدث من حوله». أمسّد صلعته ولحيته النابتة والشَعر الذي زحف إلى الجانبين. تساقط كثيرا في غضون الشهرين الأخيرين. «هل يضايقكِ ذلك؟». أضحك «لا، لأول مرة أتنبه إلى ذلك، هل تصدق؟». «لأني غير مرئي؟». «قل بسبب مشاكلنا مع الكهرباء». «والعمر؟». «وما المشكلة نحن نكبر». «لا أريد منكِ أن تفكري بخطة لإنقاذي أنا أيضا». كرّرَ لي أنه لا يخشى الموت ولكنه لا يستطيع أن ينسى صوت القتلة الملثّمين. «إششش»، يرفع رأسه الحار من على فخذي «ألا ترين كيف يسير الناس في الشوارع، أنا واحد منهم، أخاف أن أكون أشبههم، مذعورين كالحيوانات، عصابيين في حركتهم موتورين».

الوقت بين تسلمه لرسالتَي التهديد في الجامعة واختطافه كان قصيرا جدا، لم يدع لنا فرصة للتفكير في دوافعه ومدى جديته. فوضى القصص

المتناقلة جعلتنا نستيقظ على واقع أقرب إلى الخيال. ارتاع قسم كبير من زملائه الأساتذة والمدرّسين لأمر الاختطافات والاغتيالات التي أخذتْ تتكرر بشكل متسارع. مَنْ وكيف؟ بالكاد أخذتْ حمى الحذر طريقها بيننا حتى وقع الاختيار عليه. كيف وهو الأستاذ الموظف المنسحب؟ انهالت التحليلات على رأسي من كل جانب وأنا أخجل من إغلاق الباب وسماعة الهاتف. أسماؤنا في الهويات لا تدلّ على طائفة، الكرادة كانت دوما خليطا من سنّة وشيعة ومسيحيين، وأسعد حاول أن يتحاشى المعمّمين الذين ظهروا في الجامعة. قد تكون الجهة الثالثة من يقف خلف التهديد، تصفية حسابات، النية هي عرقلة سير الحياة اليومية... الهدف الأمريكان... ووو شعرتُ أنّ الواقع والتلفزيون وعراق ما قبل وما بعد يختلط ببعضه وأني أضيع في تبين حقيقة يومي. الكل يعرف ما يدور عداي وجهلي سيهلكني إن لم أتدبّر حالي كالباقين.

تدبرت العشيرة جمع مبلغ المال الذي طُلِبَ منا تسليمه، على أن تتولى أمي أمر مساهمتي في تسديده لاحقا. تنفسنا الصعداء للسبب والنتيجة. عاد أسعد سالما إلى بيته، ولكننا بقينا مرعوبين حدّ اللزوجة، نخاف من خيالنا. كان أمر التفتيش وحده في الدخول والخروج عبر منافذ الكرادة يشلّ تفكيري ويستنفد كل طاقتي خوفا من الجهة التي يقف خلفها الجنود في نقاط السيطرة. نعود مُنهكين متعرقين مشدودين بألم في الظهر والساقين واليدين لأقل مشوار نقوم به. انقطع أسعد عن الدوام. لم يبق له غير الانزواء.

عادت البيوت مخابئ فحسب، وُجِدتْ لننقذف إليها ونتخفّى

ونحتجب. عاد رهاب الطَرْقِ على الباب الذي حلمتُ بشفائي منه. بت أتفحّص، ولأكثر من مرة في اليوم أن البابين، الداخلي إلى الصالة والخارجي للبيت، موصدان بالمفاتيح والأقفال والسلاسل. لا زيارات لولا جارٌ هنا وقريبٌ هناك، يمرّان لمجرد التفقّد، لمعالجة عطل طارئ في المولدة أو من أجل تأمين حاجات شحّت في الأسواق.

أتسلّل لابتياع الضروري أو قضاء أمر. كانت السيارة مركونة منذ فترة في المرآب. اعتدتُ أن أخبّ في ثوب طويل فضفاض مع ربطة على الرأس و(شحّاطة) في القدمين. لم يكن يعنيني أن تتسارع الأيام أو تتباطأ، أن ينضبَ النهر، أن يُسرَق أثَرٌ، أن تهرمَ بناية عريقة أو تهدم، أن يُحتل مسرح أو يُحرّم كتاب أو تغلق صالة سينما، وأن تفرغَ متاحف الفن بأكملها وأن يموتَ علاّمةٍ أو شاعر بصمت أو أن نعي فداحة أن نستسلم إلى حقيقة أننا منقسمين إلى سنة وشيعة، نتقاتل ونعيش ظرف احتلال. أضغط على حقيبتي الملأى بالأوراق تحت أبطي. منبهّات زاعقة، حكّة في شعر الرأس تحت الحجاب، لهاث وعرق ولزوجة تحت طبقات الثياب. ما يجري وما يقال يمرّ كأني في طريقي إلى عمل شيء هو بالتأكيد أهمّ. أقطع الشوارع عبر شريط سينمائي وثائقي أتعجّل اجتيازَه بسلام.

لم أجد طريقا نعيد فيه تبادل الكلمات. صمتٌ يتكرّس يوما بعد يوم تصونه حيطان هذا البيت. تقشّف في التعبير والتوصيل. صباح غريب عليّ. أفكر أن الأوْلى أن نوفّر طاقتينا لنحيا. ولكن كيف؟ إن تمكن أسعد في فترة الثمانينات والتسعينات من التواري بعد أن نَسوهُ موظفا أو عنصرا يساريا مستقلا، وإن أفلتَ للتو من موت كان قريبا باختطافه، فنحن لن نكون في أمان بعد الآن. حتى الحيطان بدت كأنها تصرخ لتحتمي بنا. ليس لنا مَنْ يسندنا. نحن عزّل بالفعل. أسعد يمرض. ينتكس. أعرفه. هل أبالغ في تقديري للظرف؟ آخرون عادوا ليماشوا الوضع بشكله الجديد القديم، لكن هو لا، لن يستطيع أن يقاوم. «موديله غير» كما اعتادت أمي أن تقول. لا ضمان لعدم تكرار ما حصل. فززتُ في مكاني وخفتُ. كنت وراء دفعه للعمل وخروجه إلى الشارع. أنا وراء تعرّضه للخطر. أنا وراء انفضاض الجميع من حوله. أجل، لا يجب أن يشغلني التفكير في إشراكه في قرار، لا، ليس انفرادا ولا تعنّتا.

تركت باب الصالة المطلّ على الحديقة مواربا. وحدي في استراحةٍ في المطبخ. أتصل بأمي في البصرة لأطمئن عليها بسبب الأخبار السيئة

التي وصلتنا. باشرتني بالقول «أعلام غريبة وعمايم على رؤوس فارغة و «حواسم» وجماعات تتحارب وتغتصب وتفتي وتسرق، جنون، الوضع مسخّم مثل كل ما حولنا، هكذا صارت البصرة، الناس اليوم تترحّم على أيام زمان»، صوتها محمل بالسخرية من كل ما يدور «بعد خراب البصرة! فجأة تذكروا انهم لا يريدون إلا الأمان، فكيف أفهم كل ما حدث إذاً؟». رجوتها أن تكف بالحال، أذني سئمت كل ما يقال. ساد الصمت طويلا. تابعت قائلة إنها لازمتْ أياما جارتها التي مات زوجها في حادث في موقع العمل. زوجة مسكينة لكنها تولول كثيرا، تثير الملل وهي التي نحسته. صدمتني كلماتها والضحكة في صوتها أضحكتني. طلبتْ مني الاتصال بأخي لأطمئن عليه فوعدتُها أن أفعل.

سحقتُ سيجارتي في المنفضة. توجهت الى الحوض لأغسل يدي، لم يكن هناك ماء. تناولت المنشفة من على ظهر الكرسي وفركتُ يديّ بها. نظرتُ إلى ظاهر بشرتي وباطنها فارتجفت شفتاي. شعرتُ فجأة بأننا عراة، جلدنا جاف متشقق، شفاف مثل «أبو بريص»، فرجة للعالم!

تمدّدت إلى جانبه على الفراش. تقرّبت منه ودفنتُ رأسي في رقبته. يقول إن لحنا يركب رأسه حالما كنا نبدأ بممارسة الحب. يعيدني إلى الوراء، بعيدا جدا إلى اكتشافي لنفسي وخوفي من هذا الاقتراب الغريب أول ارتباطنا. كنت حينها أشاركه لعبَهُ في داخلي برغبةٍ حارة مشتعلة يرافقها خجل فظيع من افتضاحها. كَمَن أطلق سراح جسمي أو أن المفاتيح أُودِعَتْ عند أسعد. لم تسهل عليّ رؤية جسدي إلا من خلاله. كنت أغافله لأتلصص معه على نفسي، لأرى ما يراه. قبله كنت

أقف أمام المرآة حائرة في ما يجب فعله، عندما تتملكني رغبة في تقبيل رجل لي. عندما تجتاحني وحدة ويحتبس في داخلي شوق غامض إلى حضن دافئ وأنفاس قريبة جدا وأصابع تتحرك لتتخلل شَعري. عندما تصعد وسوسة أحاديث البنات وتبوح لي الكتب بالأسرار. أتململ حينها عارية لأتحسّس جسدي الذي لا يلبث أن يتمادى برغباته وهي تسري من دون تسلسل وانتظام. أقاوم الخوف الذي كان يبعد يدي العنيدة ويبتر الإحساس لدي. لطالما... شيء غامض يجعلني أقمع رغبات جسدي العنيدة. إنها السمفونية التاسعة لبيتهوفن، تبدأ العزف في رأسه وهي التي تقوده. كان يستهلها بعريي في الحركة الأولى. بودي لو أسأل كيف، جفاف يطلب ماءً، وهو ينضو ملابسي عني ويركض ابتهاجا مثل طفل في بستان، لوحده يقترب من نفسه ويبتعد، يغيب بين عيدان العشب العالي ويغطس في الخضرة في وضح النهار ويتأخر ويضيع والشمس ساحرة في المغيب والطبول في البعيد تذكّره بأمّه التي تسأل عنه ولكنه نعس بدغدغة النسيم، مأخوذٌ بهذا الأمان والحنان والعطر. يقول إنها في أذنيه، إنه يسمعها الآن تدور في رأسه، القوة والعظمة والحماس في مقطع الختام هو ما يأخذه حثيثا إلى منابع الرغبة، كما بيتهوفن الأصمّ. لم لا نضحك ونحن نمارسه، يهمس في رقبتي من دون أن يضحك، اعتدتُ على هذيانه هذا مع الأيام، أدمنتُ عليه خفية ليحركّني. لا شيء أروع من الكلمات الغريبة التي يهمس بها، حين تدور ويقطع صداها الطريق على أفكاري فتُلهيني. إن رغِب فعليه أن يحضنني طويلا، أن يتلمسني بنقلات مفاجئة أو تمريرات بطيئة أو اقتحام قصير مؤذٍ. عليه بالثرثرة، ليفصلَ رأسي عن باقي جسدي. عليه

ألا يستأذنني. روحي تجفّ. عليه ألا يقرأ وجهي وألا ينتظر ردَّ فعلٍ مني لكل نقلة من يديه. أتنبه إلى خيوط الشمس وهي تتسلّل إلى الغرفة والهواء البارد يعبّ من الباب الذي لم يكن مقفلا.

«ماذا عنكِ؟» بعد أن أخبرته بما أفكر فيه. ينظر إليّ كأنما لأول مرة منذ شهور، كما لو أنني أراه بعد غياب. أقول له سأتدبّر أمري. يؤلمني صوته الخشن بكبريائه المنكسر. أتمنى مغمضة العينين أن يكمل، أن يعيد عزف مقطعه الراقص. أن يستمر ويكرر المحاولة. لا أريد أن نتوقف. تجول يداه بتنويع جديد. أقسى مَرّة ومرّة أرقّ. لكأن أحدا قد سدّ جميع منافذي بالإسمنت. تصيبني أصابعه بنرفزة. أحاول أن أتتبع أثرَ فعل له من الماضي. أصكُّ على أسناني للتغلب عليها وهي تدنو من صدري، ورأسي مدفون وهو يفلح في تجاوز الأصعب فأرتخي. تماما.

صيف 2006

غادر أسعد إلى عمّان. اختياري لم يكن مختوما بتاريخ صلاحية، كما قال. كان مفتوحا. «سافر ولنر كيف تسير الأمور»، قلتُ له.

أجواءٌ واجمة غريبة. عواصف رملية أخذت تتكرر. يتغير لون السماء وتنتشر رائحة إنذار. يحدث ارتفاع حاد مفاجئ في الحرارة كأن طبيعة أخرى استجدتْ. نُحشَرُ في صندوق من صفيح وقريبا سيحين موعد رفعه بحذر وإلقائه في مكان قصي مخصّص للنفايات الخطرة.

بقينا سلوان وأنا لوحدنا. ليس أسوأ من الحديث مع الأطباء في فوضى هذه الفترة، ليس بسبب شكّي في اقتدارهم وقلة الوسائل المتاحة لهم، بل بسبب اليأس الطافح على وجوههم وخذلانهم. يميتون المريض مقدما. نَقَلَ إليّ جاري أنهم باتوا يترددون في إجراء عملية أو تقرير علاج معين لئلا يصيب المريض ضررٌ أو يتوفى، فتنقضّ عشيرة المريض عليهم.

عندما اتصلت بصديقنا الدكتور حسام لطلب عون بشأن تدبرّ أمر حبوب سلوان أكمل لي حديثه عن العشائر التي أخذت مكانها في

الصدارة شيئا فشيئا حتى صارت تتدخل في عملهم وتقتص منهم وتفرض مبالغ يدفعونها تعويضا عن الخسارات إن حصلتْ. «لم يعد هناك شيء اسمه الحقائق الطبية أم سلوان، تراجعتْ سطوة العلم، عدا الاغتيالات التي تحصد الكثيرين منا».

بدا الدكتور حسام متحمّسا في حديثه. من الغريب أنه عاد إلى اهتماماته القديمة التي انحسرت فترة الحصار في جمع السجاد واقتناء اللوحات الفنية. يتحدث بأنفاس مخنوقة أظنها تعود الى انسداد في أنفه. ابتعد عن مرضاه وأغلق عيادته شأن الباقين وصار يقضي الوقت في البيت في متابعة الفن والغاليرهات عبر الإنترنت. كان معرضه قبلا ملتقى للأصدقاء المتضايقين الذين آثروا الانسحاب بهدوء. سألني عن وضع أسعد. يجرّ النفس بالكاد. يقول بصوت مازح انه ينوي السفر والابتعاد عن المواد المهيجة لفترة ليرتخي قليلا و؛ «بشّم هوا». وكأنه قرأ ما جال ببالي ليكمل. «هل تصدّقين، أدور بسيارتي في الشوارع مجازفا. بالأمس مررت بالوزيرية ثم إلى باب المعظم، ومن هناك إلى زيونة، ومنها نحو ساحة الأندلس إلى شارع السعدون حتى حلول الظلام. إني مشتاق إلى بغداد التنورات القصيرة وقصّات الشعر والبدلات الصيفية وعودة الطالبات من الجامعات في الباص، أقسم إني كنت مرعوبا خائفا ولكني كنت أيضا أعاند بغباء ما يفعلونه بنا وبهذه المدينة، أحلم بمشوار بسيط، أن أتمشى على قدمي إلى ساحة الواثق صباحا لأشتري «الصمّون»، من دون أن أفكر لمن تعود الأمكنة التي أقصدها، من دون أن أتحسس برعب هويتي وأوراقي في جيبي. هل معقول ما يحدث؟ لا أريد غير أن أتنسّم صبحا نظيفا بريئا».

الموبايل لصق أذني وأنا أسمع خنينه. كنت أقف عند النافذة في الصالة منصتة، متطلعة إلى أغصان ورد الجهنمي المتشابكة على السياج. لا أشعر بشيء ولا أشتاق لشيء، بينما صوته يؤكد ما يعاني منه، ما يحبه وما يفتقده وما يجعله غاضبا. كما كنت أسمعُ نشرات الأخبار وأشعر باحتدام أسعد عبر تلك النقاشات السياسية الطويلة المملة بحضور صديق أو عبر الموبايل؛ ما كنّا عليه وما اختفى من حياتنا، ومن أين أتى هؤلاء الغرباء؟ يمكن لهذا الحديث أن يُعاد ألف مرة من دون ملل. أجل أنا مصابة ببلادة في عقلي أهنّىء نفسي عليها. لم أعدْ أحلم. صار ذلك يجعلني مشدوهة البال لا أتنبّه إلى ما يمرّ بي - مثل أغنية أجنبية كنا نسمعها، تكرّ من دون إنصات إلى مفردات نصها.

تركت الدكتور حسام يواصل حديثه بعد أن وعدني أن يمرّ بنا حال أن يسمح الظرف قبل سفره.

انفـراد مريـح فـي القيـادة داخـل البيت. فوضـى لا حسـاب عليها، يقابلهـا انفجـار في منطقـة الدورة، رصاص في شـارع فلسـطين وغلق للطريـق. تركتُ المستشـفيات والأطباء وأغلقتُ بابي. لا شـيء عندي لأداري به سـلوان غيـر المسـكنّات لتخفيف صداع رأسـه المتواصل، لآلام صـدره وحـالات الاختناق التـي تصيبه. أخزّن الحبـوب، أما إبر الحَقْـن فأخبرونـي أنها نفـدتْ ويتطلب مني أن أبحث عنهـا عند الباعة علـى الأرصفة. ذلك بعد أن جهدت من أجل زرقه بنفسـي. هل أشـكر مَـنْ فـرضَ دورات التمريض علينـا وقتها؟ كنت أتعرّق فـي البداية وأنا أغـرز الحقنـة في عضلته، أغالـبُ ذكريات الحادثة التـي تعرضتْ إليها أم أحمـد عندما كنا في العِمارة والعقدة التي خلّفتها بي مذ كنت صغيرة تجـاه الحقـن. جارنـا المضمّـد أتـى يومها في موعـده عصـرا ليحقنها بجرعـة البنسـلين عندمـا مرضـت. كانـت تنام فـي غرفتي علـى فراشٍ ممدود لها علـى الأرض. أخرج المضمّد الابرة الطويلة مع حاملها من علبة النيكل، ثم القطن وإمبولة الماء المقطر الصغيرة التي حزّها بمنشار صغير وكسر عنقها بضربة دقيقة سريعة. رائحة السبيرتو ما أن تنتشر في

الغرفة حتى يصيبني مغص في بطني. هزّ المضمّد الأبرة ودفع القليل في الهواء قبل أن يغرزها في اللحم. الإبرة انكسرتْ في ذلك اليوم وبقي ثلثها في فخذ أم أحمد. ارتبك الرجل، تلفّتَ يمينا ويسارا ثم طلب مني أن أنادي على أبي. لم يكن أبي في البيت وكان عليهم نقلها إلى المستشفى، الإبرة أخذت تتحرك ويخشى المضمّد أن تصل مجرى الدم ولا يمكن انقاذها بعد ذلك. لم تنطق أم أحمد بكلمة، جمدت مكانها مخافة أن تضيع الأبرة في لحمها. بقيتْ كالمومياء ممددة على الأرض وقد غطّت جسدها بالعباءة حتى حضر التاكسي. هذا هو كلُّ ما نذكره من الحادثة، ما عدنا نتذكر كيف انتهت القصة بعدها.

لم يسهل الأمر عليّ مع سلوان ولكن أقنعت نفسي بأن ما نفعله اليوم اضطرارا يصير عاديا لاحقا. الأدوية التي تُباع على الأرصفة انتهى في الأغلب تاريخ صلاحيتها، لذا وجدتُ طريقة أخرى لها تأثير مخالف للحبوب، وهي أهون شرّا. بدأت أخزّن زجاجات الكحول له، وهي من المحظورات التي صار تداولها يُعدّ من المعاصي، عدا صعوبة الحصول على النقي منها وكلفته باهضة.

أسعد ألغى باره الصغير منذ سنين. لطالما أحببتُ هوايته القديمة في جمع قناني الكحول، زجاجها وأحجامها وملصقاتها، ألوان السوائل المختلفة. أما جمع كؤوس الكريستال بأحجامها المختلفة فقد كانت هوايتي، تجمعتْ من هدايا أبي والأصدقاء وما قمنا نحن باقتنائه على فترات. أسعد لا يشرب إلا في المناسبات، لا يستمتع بما عنده إلا احتفاءً بأصدقاء معينين. كنت أنتشي برائحة القِدَم المنبعثة من فمه بين الحين والحين، كالتي تنبعث من خشب قطعة الأثاث التي جعلناها بارا

صغيرا. تذكّرني دوما بالاكتفاء، بأيامي الهادئة، بغرفتي، بالقبانجي في دوران الإسطوانة البطيء وإغفاءة أبي عند الظهيرة في مكتبه، بالكتاب في حضني داخل غرفتي في الأعلى، ببرودة البيت والصوت البعيد لحركة أم أحمد في المطبخ، بغسلها لآخر صحن بعد الإنتهاء من وجبة الغداء وانسحابها الحذر.

مع الأيام نسينا الركن الذي احتله البار في المكتب. اندثرت الرائحة المدفونة في الخشب الذي اتخذ له ركنا مع قطع الأثاث الأخرى الملقاة أقصى الغرفة المهملة في الطابق العلوي، مع انحسار الأماسي العائلية وتزاور الأصدقاء وتحجّب الصديقات. أدركتُ متأخرة أنه كان رخاءً، اختُصِرَ بمرور الوقت إلى قنينة أو اثنتين تخبآن خلف الكتب للضيافة النادرة، حصل سلوان ما أن شبَّ على الإذن منا للوصول إليها.

بمغادرة أبيه صار وقتي كلّه له، وصرتُ أقرّر طريقة العلاج والمشروب الأفضل، والجيران أو الأصدقاء الذين يمكنني الاستعانة بهم إن اضطررت. لم آبه كثيرا بتوسلي المساعدة، لم أعدْ أقلق إن غفا في حضني أو طلع الصبح ونحن مستيقظان. كل ما هو مطلوب مني هو أن أعمل من أجل ألا يقع ثانية تحت أيدي الأطباء. لا أحد له شأن بنا ولا أحد يعلم بما أعلم به ولا أحد يعرف إبني كما أعرفه.

بدأ سلوان يغادر غرفته. أتشجع في سري. يتحرك بخطوات بطيئة مسموعة تجاه المطبخ. يرتدي الـ «تي شيرت» والجينز كأنه يستعد للقاء أصدقاء، يطلّ عليّ في المطبخ بوجهه الحزين الساهم، بلحيته التي أطلقها، بالصلع الذي أخذ يزحف سريعا وينحت جانبَي جبهته ويبدّل من شكل وجهه. يجلس عند الطاولة أمامي منكفئا على جهاز الراديو أو يتابع القراءة بصمت أو يطلب طعاما. أحضن يدَه بين كفيّ، أفركها لأطمئن على دفئها وألثمها. أضع له كوب اللبن ريثما أعدّ الرزّ وأنا أتلمّس ابتسامة تكاد تطفو على محيّاه لعلها تعيده إليّ.

شغَلَنا تركه لدراسته الجامعية بادئ الأمر، ولكني تركتُ التفكير من بعدها. انكسر شيء ما في نفس هذا الطفل السعيد الذكي الفصيح وتراجع سنة بعد سنة. ازداد انطواءً، اختلّ نظام نومه على نحو متدرّج حتى بات النهوض في الصباح أمرا صعبا. صار يلازمه أرق غير مفهوم. كان يشعر بالوهن وخشيتُ أن يكون ضعف قلبه وراء ذلك. بقي أمر إكمال دراسته شاغل أسعد رغم أن كل شيء كان مختلا حينها. الحصار كان قد غيّرَ في أولويات كل الناس عدا أسعد الذي واصل ما هو عليه في داخله.

باع قطعة أرضه لدفع البدل النقدي من أجل أن يعفيه من أداء الخدمة العسكرية، وتركتُ العمل لأتفرّغ له وللبيت قبل الكثيرات من النساء اللواتي أرغمن على ترك العمل في التسعينات. فهمتُ أنّ هناك خللا ما يحدث في حياتي، تركيبتي، إيقاع تنفسي، وعلاقتي بكل ما أحبه، بزهرة الجاردينيا أسفل شجرة النارنج في الحديقة وعود النعناع على حافّة النافذة في المطبخ. ساكتة أزاء الحياة، وأسعد لا يفهمني، وأمي ليست أمي. ولهذا الخلل علاقة بحالة ابني. رفض أسعد أن يسأل، من دون كلمات، كأن اتفاقنا كان يكمن في تهكمنا، فلو كان يتوجب علينا اختيار كلمات لكل ما يمرّ بنا لما انتهينا. جعلني المسؤولة عن سلوان، ولكني كنت أدرك جيدا أنه، ورغم إعلانه الخفي بإخلاء الساحة لي، ورغم انسحابه، ظل يأمل ألا يجده منعزلا في غرفته كل يوم بعد عودته من عمله، يأمل أن يراه يصادق البنات ويتبضّع للبيت ويسهر مع الأصدقاء ويجامل الضيوف ويستقبله ويخوض أحاديث معه.

أسعد أراد لسلوان أن يكون رجلاً ما إن بدأ يشبّ. لكننا لم نكن لا أنا ولا هو ولا سلوان نعرف معنى أن يكون رجلا حقا، كنت أنظر طويلا في عينيه مستفهمة ما يقصده. عندما تتلاقى نظراتنا كان يخفض نظره ويستدير حائرا في وجهته.

في ذلك الظرف ما كنت أستطيع أن أضمن استقرار حالة سلوان. الخارج تسلق السياج العالي واقتحم البيت. عندما داهمنا الجنود ظننتُ للوهلة الأولى أنهم كانوا يبحثون عن أسعد لسبب ما، لكن تبين أن من كانوا يشكّون في أمره هو سلوان. وقفتُ بينه وبينهم وأنا أردّد بتوسّل أنه مريض. طلبوا مني التنحّي بدفعي بعيدا بخشونة. دخلوا غرفته ورفعوه من الأرض بشدّه من ياقة بيجامته. أمروه أن يبرز أوراقه. كانوا يريدون استجوابه لسبب لم أعرفه. انصرف اثنان ليطيحوا بالكتب من على الرفوف مثل مشهد من فيلم. أمسَكَ ثالث عصا أبي من مقبضها العاجي وأخذ يلوّح بها بضحكة عصبية. سقطت سجادة الحرير من على الحائط، وقُلبت السجادة المفروشة على الأرض، تناثر زجاج المزهرية واللمبة النفطية وخزف وعاء الزيت الصيني. وقعت المرآة الكبيرة بملاكَيْ تاجها وانكسرت. لم ينفع قولي إنه مريض. قلتها بحَلْق يابس وبنَفَسٍ متقطّع لرهبتي. كان السلاح مشهورا، ومنظر الخوذات التي تغطي كامل الوجه، والبساطيل والقفازات العسكرية الأمريكية الضخمة، مرعبا. وكأن جيشا كاملا قد احتل البيت. لم يحتمل سلوان

الموقف فراح يصرخ بهيستيريا وسقط أمامهم مع مذياعه الذي تقطعت وشوشته. «سيختنق»، صرختُ وصاح المترجم مرددا الكلمة من بعدي مذعورا، أسرعتُ لأحضرَ الكيس وأجلسه أرضا. سددتُ أنفه، هززته وحرّكت رأسه ليتنفس بفمه في الكيس. عرضوا عليّ نقله إلى المستشفى ولكني كنتُ متهالكةً في مكاني. قلت للمترجم بتعب وأنا أفرك صدره إن من الأفضل لهم أن يواصلوا البحث عن الإرهابيين في مكان آخر ويتركوننا. عاد أحدهم وتناول بندقية صيد أبي القديمة من على الجدار وتقدمهم في الطريق إلى الخروج.

ضوء قليل ينبعث من الشقّ الأسفل للباب. يمضي ليله في تنظيم غرفته ومحتوياتها. هو حريص على تعقب أثر كل قطعة في البيت، إن كانت صندوقا خشبياً من الهند لجدّه أم قصاصة ورق منسية لأبيه.

يريني مبروش الورق الذي يدفعه الفأر إليه كل مساء، يقول إن فأره مثله يستطعم كل ما فاحت رائحته بالرطوبة والعفن، يرفض بشكل قاطع استخدام مصيدة أو سمّ لقتله. يدّعي أن كليهما حيوان ليلي، بيد أن حاسة سمع هذا الفأر متدربة وأسرع من حاسته فكان يفلت منه كلما حاول الإمساك به. ينادي عليّ بين الحين والحين ليريني ما يلفت اهتمامه. ناولني قصيدة «عاشق من فلسطين» لمحمود درويش مطوية. تلك القصيدة كان قد قرأها في ساحة المدرسة يوم خميس ما وهو صغير، فطُلب منه أن يكرر قراءتها. كان أسعد قد حرّك له الكلمات بالأحمر ليضبط حركاتها. كدت أبكي تأثرا لسماع صوته: «عيونكِ شوكةٌ في القلب/ توجعني وأعبدها». اختار له أسعد أيضا قصيدة «مرحى لغيلان» لبدر. «بابا بابا/ ينسابُ صوتكَ في الظلام إلي كالمطر الغضير».

لا حياة لنا خارج جدراننا الأربعة. بدا لي أن سلوان يجد سلواه حتى وهو يسجنني معه فيها. صرت خارج بيتي مثل سمكة تتقافز حتى تعود إلى الماء. أعود سريعا على وقع نداءات عاجلة تثقب رأسي، فأرى أنه زحزح قطع الأثاث بحذر بحثا عن جحر الفأر. نديمه! يقول لي إنه يفتقد لعبه حين يسود الصمت. يمسك بذراعي يمنعني من العودة إلى المطبخ ويطلب مني الانتظار قليلا ليريني هذا وذاك من الكتب والأوراق، يتشممها فأمنعه خوفا من أن يثير الورق القديم حساسيته. تضايق الأتربة تنفسه. أدور متجنبة النظر إلى عينيه، متهربة من حماسته وانفعاله متصفّحة السجلّ الذي أعدّه. أمسّد ذراعه متملّصة متذرعة بالعودة لمتابعة الطهي في المطبخ.

لا نأبه كثيرا لما نأكل. لا نتناول اللحم إلا في فترات متباعدة وسلوان ورث عني كرهي للسمك ورائحته. لم يكن الأمر بأكمله ذا أهمية في النهاية مادمنا الثلاثة نكره الوجبات الثلاث بتسلسلها وتحديداتها. كان لا يطيب لسلوان إلا أن نجتمع حول مائدة الطعام في المطبخ مترئسا جلساتنا وهو صغير وإن كان من أجل أن يشرب كوب حليبه. كنت أصحبه من المدرسة عند عودتي من عملي لنجد أسعد بانتظارنا وقد أعدّ الرز مع البيض المقلي طبق سلوان المفضّل. أو نضع ما هو متوفر على الطاولة. أسعد يكتفي بخبزةٍ يلف بها ما يتوفر من جبنة وخضار. البيض واللبن الخاثر والرز لسلوان إلى اليوم.

«ما الذي كنا نفعله أبوك وأنا من دونك؟» قلتها في إشارة لجهده في ترتيب رفوف المكتبة بينما كنا نتناول الطعام معا ما جعله يثور بوجهي

فجأة: «لا تحاولي اقناعي بقيمة حياتي. ما حاجتي للحياة ونحن نعيش تحت هذا التهديد! أنا وأنتِ وهو في مكانه هناك، لا شيء غير كلمات الكتب الفارغة نقولها كما تتقيؤها الفئران، لا قيمة لنا ونحن نعيش في جحيم هذا الخوف». يدفع صحنه بفظاظة وأحاول أن أكظم غيظي، أتمنى لو اختفي من حياتي، وأتوسل إليه أن يكفّ عن التفكير بهذه الطريقة. هو وحده الذي يدرك تماما مقدار إيلام كلماته هذه التي يكررها على مسمع مني. أنهض لأبحث لي عن مهرب.

ما الذي تفكّر فيه أمٌّ مثلي؟ ما الذي تقوله الأمهات عني؟ لعلي كنت قد سلّمت بالأمر لو ولدتُه مشوهاً أو معاقاً، أو لو كانت الحروب هي التي أعادته إليّ معطوبا منخوراً كما أعادت باقي الأبناء الى أمهاتهم.

أواخر 2006

لا نشعر بالنهار، والليل يحلّ ما إن توصد الأبواب وتحكِمُ الظلمةُ قبضتَها من حولنا. أحيانا يتحول المطبخ أمامي وأنا جالسة إلى مسرح متقشّف بكواليسه وإنارته، صناديق من خشب رخيص مطلي بالأسود متوزعة من حولي وبضعة أمتار من قماشة متدلية من خلفي وكل طرقة أو همهمة أو سعلة تصل أذني، والضوء الوحيد إلى جانبي خافتٌ جدا وعليّ أن أفكر بصوت عالٍ. هل جننتُ، أشعر بالسواد من حولي يغلّف كل شيء، أمتار من القماش الأسود تنزل من أعلى إلى أسفل وأنا كائنة فرِحة بدورها، مختزلة إلى مجسّم صغير يضيء الفانوس جانبه. لكن ضربات قوية على الباب الخارجي أفزعتني فنهضتُ مذعورة لأنظر عبر النافذة.

لم أحسبْ حسابا لزيارة أحد فكيف بأمي. تناولتُ الحقيبة من يدها وأدخلتُها، رافقتْ جارها صاحب التاكسي وعائلته سفرتهم. تأكدوا من استقبالي لها قبل أن يحيّونا وينطلقوا بسيارتهم. كان من الغريب أن سُمِح لهم بالمرور في هذا الوقت. كان يفترض وصولهم قبل

ثلاث ساعات بيد أنهم احتجزوا من قبل مفرزة في الكوت. قالت لي إنها كانت مجازفة من جارهم مواصلته الرحلة، لولا ابنتهم وما لديهم من مستمسكات وتقارير بشأن إجراء عملية مستعجلة لها في بغداد. أخبرتها أن سلوان قد خلَدَ للنوم. كانت تعبة وتريد أن تغتسلَ وتغيّر ثيابها قبل كل شيء.

وقفتُ حائرةً بعد دخولها الحمام: أين ستنام؟ لا مكان في هذا البيت الكبير لأحد غيرنا أنا وسلوان ولا شيء معدٌّ لاستقبال أحد. عدتُ وجلستُ في مكاني على الكرسي في المطبخ. تركتُ عن عمد كل شيء على حاله أمامها على الطاولة لتراه. ظننتُها ستغادر ما أن تكتشفَ ما توصلنا إليه أنا وسلوان. كنت أحاولُ أن أمسكَ فكيّ ليكفّا عن الإهتزاز، متأهبةً للهجوم عليها حال أن يبدر اعتراض ما منها. اعتدتُ منذ فترة حريتي مع سلوان في هذا البيت ولم أفكر في أن أحدا سيقتحم خلوتنا ويطلّع على أسرارنا. لم أتدرّب على الدفاع عن نفسي وهو ما يثيره لقائي بها ويزعجني. جلستُ ثقيلة في مكاني منتظرة. لكن دموعي سالتْ حالما دخلتْ المطبخ ورأتني. بقيتْ صامتةً من دون كلمة. كان الكأسان والقنينة أمامي على الطاولة كي لا يُخطئ نظرُها، وكنتُ أرشف من بقايا كأسه الذي تركه جانبا. انتشرتْ رائحة استحمامها في المكان من حولي فارتجفتُ. رائحة استحمامها التي فاحت تعود بي دائما إلى خيالات من طفولتي ترهبني.

وجهها يطلق استفهاما سريعا. أخبرتُها أن صديقا لأسعد وجارنا يتكفلان بتمويني باللازم، وهذا هو الأهم حاليا. هما على علم بوضع سلوان النفسي. «ستدمّرين نفسكِ وتدمرّينه معكِ، روحي، خليني

أعتني به وغادري أنتِ والحقي بزوجكِ». ضحكتُ ثم أجهشتُ بالبكاء وأنا أريدها أن تنظر في عينيّ. «كيف، قولي لي؟ ألا ترين ما بي، إنه لا يقوى حتى على الخروج من هذا البيت، يختل في غرفته، كيف يمكن لي تركه؟». لم تنظرْ إليّ. أشعلتْ سيجارة أخرى من سيجارتها. مجّتْها طويلا. الدخان أحرق عينيها فانقلبتا بلون الدم. تمنتْ لو كنا غادرنا مع أسعد بدلا من هذا الجنون. «هه، نكتة قوية، كل ما توصل أسعد إليه هو خياران، إما الجنون أو الفرار، وحتى الجنون فهو وفق تقليعاتهم حرام، إنه يأس من رحمة الخالق، ألا تسمعين ما يدور حولكِ؟»، قلتُ وكرعتُ ما تبقى في الكأس. لم تنظر صوبي ولكنها قالت بوجه يعلوه اشمئزاز من الرائحة إني دائخة وأن شربي للكحول لا يليق ببنت مؤدبة، بنت عائلة مثلي، هو آخر ما يمكن أن تتوقعه مني، والأفضل لي الآن هو أن أنهض وآخذ حماما باردا وأذهب للنوم. سألتْ عما إذا كان بوسع أختَي أسعد في الخارج مساعدتي. قدحتُ عود الكبريت بعصبية أمامها فتطاير شرره عاليا وحطّ كالعدم على الطاولة. أشعلتُ نصف سيجارتي ثانية. أخبرتها أنهما بالكاد تتدبران أمرهما، لا نسمع منهما إلا في فترات متباعدة. الحيرة التي طبعت ملامح وجهها أشعرتني فجأة بارتياح غريب. سحبتُ أنفاسا عميقة من سيجارتي. هدأتُ في بلعي لردة فعلها بقسط واحد، دفعة واحدة. ارتختْ أعضاء جسمي ورفعتُ ساقيّ إلى الكرسي المجاور. انتهى الموضوع بعد أن لخصّته هي لي. ليس لديها حل! بنت مؤدبة.. ثم ماذا؟ نحن لم نتفق يوما على شيء. لم آبه بها، لا سلطة لها علي. كانت تخاطب طفلة لا أحد يراها سواها. جال نظري بينها وبين الكأس الفارغ وزجاجة الويسكي، تناولت الأخيرة

وملأت كأسي. تذكرتُ أبي الذي كان يحلو له أن يستمتعَ بكأسٍ صغير في المساء عندما يطمئن إلى أنني في طريقي إلى غرفتي ولن أخرج ثانية. كنتُ أترك الصالون لأصعد وأنام متنصّتة لحركته الوئيدة حتى يستقر على كرسيه ويسود الصمت، أو يتسلل غناء عبد الوهاب بصوت خفيض. ضحكتُ في سرّي عندما وضعتهما جنبا إلى جنب أمامي للمقارنة. أبي أجاد تحريري منه. كان حديثي معه يختصر على تفقّده لاحتياجاتي والكلمات كانت معدودة، كأننا كنا نتعجّل قولها لننتهي إلى الصمت الثمين الذي نترك له أن يؤكد مدى اتفاقنا على كل شيء. أحضن الكأس براحة يدي وكأني أنظر داخل بئر. أسعد كان يحرص على مشاركة أبي كأسه بين الحين والحين بشروط تكاد تتشابه. كانا في أقصى استمتاعهما بالمساءات تلك حين يتهاديان في الحديث ويعود أبي إلى الذكريات. تتناهى الى أذني الآن تلك الضحكات الرجالية القصيرة التي كانت تنطلق خلال حديثهما. يا إلهي، لا أشتاق إلا لأصوات معينة. قلت لها بصوت خفيض؛ «أنصحُكِ بكأسٍ صغيرٍ، من شأنه أن يريحَ عظامَكِ ويذهب بعناء الطريق كي تنامي بعمق، الأمر لا يحتاج للحديث عن المعاصي والمحرّمات»، ثم ضحكتُ بسري لنظرتها الجامدة التي تعبّر فيها عن غضبها. لابد إني ثملة كما تقول، إذ وددتُ في داخلي لو تقيمُ بيننا وقتا أطول هذه المرة. أتيت على ما في الكأس وأنا أنظر إليها. «جنون أصلي ما يحدث من حولنا»، هو كل ما سمعته منها وهي تسحق عقب سيجارتها في قلب المنفضة في حركة دائرية. رفعتْ رأسها لترى دموعي تنحدر حرّة أمامها. ظلتْ صامتة محتارة، ثم نهضتْ من مكانها لتنسحب. قالتْ إنها تعبة وتودّ النوم.

وهي تنهض وتستدير لاحقتُها بعيني كأني أريد أن آخذ مقاس ظهرها، لأتفحّص ثوبها، لأتامل شعرها المموج الكثيف المغسول بطوله إلى خصرها وقد رسم بلله بقعة كبيرة بعرض كتفيها، لأترك عينيّ تنحدران حتى كعبيْ قدميها الحمراوين اللتين نزعتْ الجوارب السود عنهما.

نهضتُ بدوارٍ واقترحتُ أنْ نمدّ فراشا في الصالون الصغير فسلوان ينام في سريري. لم تقلْ شيئا. انهمكتْ معي في ترتيب المكان أولا ثم استدارت ببطئها المعهود لفتح حقيبة ملابسها.

عدتُ إلى مكاني يلازمني صداع حادّ. أعيدُ تسلسل ما قلناه هي وأنا. لم يعدْ أحد يجهل ما يحدث، تعرينا تماما أمام بعضنا بعضاً جميعا بفضل العالم والمجانين الذين يقررون مصائرنا. أشكّ في رغبتي باللحاق بأسعد. يضيق صدري بالفكرة كلما حاصرني آخرون للتفكير بها. أمي لم تقلها ولكنها فكرت بلا شك ببيع البيت.

سرعان ما غطّت أمي في النوم وهي تصدر شخيرا خافتا. أشفقتُ عليها. احترتُ أين ألقي بجسدي المهدود لأغفو فدخلتُ غرفتَه لأتشمّم رائحتَه.

لم تتمكن أمي من زيارتنا إلا بعد وفاة أبي، طليقها. أسعد هو الذي كان يرحّب بخالته دوما. يتكاثف دخان سجائرهما حول الطاولة طيلة فترة إقامتها بيننا. يستبدل الشاي بالقهوة حينها، لما كانت تحرص على تجهيزه بها كلما قدمتْ من البصرة، كحرصها على جلب أفضل أنواع حب عباد الشمس والشوكولاته المستوردة لسلوان. تتحسر كعادتها على أيام زمان؛ لو كان الأمر عائدا إليها لكانت جاءت بزوج من الطيور لتعدّها احتفاءً بنا، ولكن أينها الأهوار وأين طيورها، وهي تهزّ يديها. تحسن الحال وإن لم تنس محنة تلك الأيام. صارت تأتي لنا في زياراتها الشتوية ببرّاد من الفلين مليء بالسمك تخص به أسعد. كانت تعتني بتحضيره وعمل الحشوة له، تهيىء التنور وتقوم بعملية الشواء بنفسها وتتناوله معه. حينها كنا ننسحب سلوان وأنا إلى أقصى مكان في الحديقة أو نبقى في الداخل.

كانت أمي جاهلة في كثير من الأمور التي لا تخصّ معركتها في الحياة. ووفق ما رأته بعد فترة من رصدها لحياتي أنني أمام معركتين فقط، هي جبهة أسعد وجبهة سلوان «ليس عليّ أن أفكر في جبهات

أخرى». أحدس طريقة تفكيرها ولكن فاتني، أو أني لم أفكر، أن زوجي يشكّل معركة عليّ كسبها. تضايقني حقيقة تجادلني بها وتساوي برأيها رفضي للطبيعة، وهي أننا نساء وبحاجة لرجل في كل الأحوال. لا تفهم طبيعة ارتباطي بأسعد ولا تعتقد بوجود مشاعر غير الحاجة والغريزة. لديها اختصارات وحسم في كثير من جوانب الحياة يصعب عليّ فهمها. «الرجل ينتكس بشكل عام من دون قضيبه وفلوسه و...»، يسخن جسدي وأشعر ببقع حمر تتسارع بالإنتشار على خديّ وجانبي ذراعي لتفضحني شأنها دائما، أحاول أن أهضم مباشرتها التي تصدمني فأقاطعها: «والمرأة؟»، تبتسم وتعيد على مسامعي بتهكم تكملة حكمتها المعهودة البائسة؛ «الموضوع كله هنا» وهي تشير مجددا الى أسفل بطنها «الحكم والسياسة والأمراض والإجرام والفقر».

أحتار أحيانا كيف أتجاذب الحديث معها حين تطرح هذا الموضوع بثقة ويقين لتسدّ الطريق على أية فكرة أخرى يمكن أن أجيء بها. ليتها تجزل في النميمة والهذر كما تفعل باقي الأمهات. ليت حلما ما يكون مصدر قلق لها وتودّ أن تعثر على من يفسّره لها، ليتها تؤمن بالغيب وقراءة الفناجين والكفّ وضاربي الدفوف، كان يمكن حينها أن نتحدث بخفّة أكثر فيما بيننا. ليتنا نتحدث عن طرق مبتكرة لصبغ الشعر ورسم الحواجب، ليتَ إيمانها غير صلاتها وذكرها لله في حينه، لربما كنت أيضا ضمنتُ تسليمها التام بما هو مكتوب وكفّها عن مجادلتي. أتركها في مكانها عند الطاولة مؤكّدة لها أن الانصراف إلى عمل أي شيء آخر هو أجدى لنا من كلامها العقيم هذا. أوشك أن أقول لها إن أفكارها القديمة والحِكَمَ المتداولة هذه لا تنفع لكنني أتراجع. شعوري بقِدَمي

ونفاد صلاحيتي يجعلني أسخر من أقوالي في الوقت عينه. إبنة الحياة، كما يسميها أسعد، كانت هي المتحركة وأنا التي تتقوقع وتتخلّف.

إيجار محلات «الشورجة» يسدّ حاجتنا، ولكن أمي التي تؤمن باستقلاليتها لم تكفّ عن التعليق عما سمته إعالتي له. لو أمكنها أن تصمتَ لهانتْ علاقتنا معا. كنتُ أزجّ بأسعد في علاقتي المفروضة بها لأبتعد عنها. لو لم أفهمها جيدا لكان أمر مسايرتها أهون عليّ. يُهَيأ لي أنها كانت تخوض المعركة بعد الأخرى في حياتها من أجل أن تثبت حقها أولا، ولكن أيضا من أجل أن تناقض نفسها. وإلاّ فأين إيمانها بضرورة استقلاليتها؟ رجالها كانوا يسلبونها هذا الحق الذي تتحدث عنه. منهم مَنْ تزوجَ بأخرى ومن غاب أو تغيّب ومن فَرَضَ عليها شروطه التي لم تلائمها. لم يدركوا حقيقة وجود امرأة من نوعها. من أجل الحصول على طلاق أو حضانة طفل هناك معارك يجب أن تخوضها وويلات لتكسبها. خسرتْ حضانتي وكسبتْ حضانة أخي الأصغر بعد زواجها الثاني. لم تنجب غيره وقد نشأ بعيدا ولم ألتق به إلا في زياراتي القليلة لها قبل زواجي. بعد زواجها الأخير لم نعدْ نراه إلا نادرا. لم يرَ ضرورةً في زواجها من جديد بعد أن تكفّل بإعالتها. اختلفا فترك البيت. لم يفهمها. في داخلها رعب مما يأتي به القدر. هي لا تثق بأحد. تعيش في شكٍّ تجاه الناس كأنه مزروع في داخلها. ظلّ ذلك الشعور يحرمها من الاطمئنان ولاسيما إلى رجل وإن كان ابنها، وإن كان هو عينُه الغصّة في حياتها.

لم أستنتج ذلك وحدي، جاء بعد غياب أبي، مع حرقة التفكير بها، خلال حديث أسعد بشأنها مع أسئلة سلوان عن حياتها ودفاعه عنها.

تظلم وتتجنّى بانفعالها حين يُهضَم حقها، تصير امرأة أخرى بلسان آخر أقرب الى الشيطان وبنظرة عينين شبه زجاجيتين.

ورثتْ تلك الجينات بالتأكيد عن أبيها. لا تترك حقها ولا تستسلم. كان أبي يقصّ على أسعد أجزاء من مغامرات أبيها كنوع من الخوارق. جدّي هو الجانب الوحيد الذي يأتي أبي على ذكره بما يخصّها. صمتُه أمامي وأنا طفلة جعلني أرسم صورة لزائرتين غريبتين عن بعضهما. كنتُ أخشى إن رحّبتُ بها أو إن قصدتُها وارتميتُ في أحضانها أنْ أُغضبهُ. لكنها حقا لم تحضني يوما. قبلاتها كانت خاطفة مرتبكة حتى ولو جاء اللقاء بعد شهور. تعيش لنفسها. هي التي مَسَكت حسابات أزواجها. تحبّ المال الذي تكسبه هي، وتتقبله مني ومن أخي طالما كان من مدخل واجب الأبناء نحو الوالدين. لم تجد مانعا في البحث عن مصدر رزق جديد كل مرة. ولا أدري إن كانت قد اكتسبت خبرتها كالباقين الممتحنين في هذا البلد الذين برعوا في مهنة البيع والشراء في كل شيء، ليتدبروا حياتهم، أم أن الجين المسؤول عن البقاء لديها كان متميزاً.

أنا لا أشبهها بشيء. بل أخاف أحيانا أن أكون أشبهها في شيء من دون أن أدرك ذلك. أخبرتني أنها باعتْ البيت، أساور الذهب، سجادتيها الإيرانيتين وكل أواني النحاس وافترشتْ الأرض وزاحمت الرجال لتبيع المواد الغذائية والملابس المستعملة في السوق، كما انها عملت لفترة خبّازة في سنوات الحصار. صرفت الوقتَ في متابعة المحامين ومراجعة المحاكم. جلستْ على عتباتها بعناد، لتسترجع حقها في الحصول على مؤخر صداق، نفقة للطفل أو نقض حكم نشوز صدر بحقها.

استشاطتْ غضبا لكلمة طاعة. بدوري هالني الأمر عند سماعي للكلمة في الوهلة الاولى. سألتُ أسعد عما يعنيه صدور حكم بالطاعة عليها. لم أكن قد سمعتُ بذلك من قبل وتصورت أن مثل هذه الأمور تعود إلى أزمان بالية حقا. تخيلتُ هذا الرجل الذي طلبتْ الطلاق منه بلحية ونعال وعصا من عصر قديم. من أين لأمي أن تستسلمَ لحكم من هذا النوع؟ روتْ لي وهي غارقة في الضحك كيف قصدتْ وهيَ ترتدي زيها العشائري زوجها الثاني حينها، دخلتْ بيته تحمل ملف القضية بيد وتقبض على مطرقة كبيرة باليد الأخرى. حطّمت الأثاث بيدها وكسّرت الصحون، هدّدته بأن تشعل نارا في بيته وتفضحه وتحرّك عشيرتها بأجمعها ضده إن لم يسحب القرار ويتنازل وسيندم طيلة حياته.

الغريب أنها تعود كما كانت، بجرعة سخرية أكبر قليلا من الحياة، وبثقة أقل بمن هم من حولها في كل مرة.

2007

مطلع 2007

أخذ أسعد جزءاً من صمتي معه. بدأت أعي مشكلتي بعد أن غاب. شعرت بتحرر منه وما كان صمتي سوى رغبة في مخالفته في ما يراه ويقوله لا غير. أبعدتَه عنّا لأتفرغ لسلوان. لا أعرف ما يدور في رأسه فلا أُتعب رأسي. أحزن لأن الناس تتحدث عن التفاؤل على الشاشة، لأنهم يريدون أن يشجعوا أنفسهم على المزيد من الصبر. التفاؤل شيء لم نعرفه يوما ولم نجرّبه، مثل توصيفات حبّة الفراولة والكرز والفراشة، كما يقول سلوان ونضحك.

قلَّ طعامنا وكثُر حديثنا. صرنا ندخّن ونشرب بشراهة معا. أضع أولَ المغيب ما تمكنتُ من إعداده من الطعام أثناء نومه بما يتناسب مع قلة شهيته.

كان يغلق كل فتحة أو شقٍّ في المكتب لئلا يرى ظلا لشجرة أو أسطوانة مدفع عبر النافذة. كان لظهور الملثّمين وما يسمعه في مذياعه عن جزّ الرقاب فعله السيء على نفسيته. كان يُحكِمُ غلق نافذته المطلّة على الحديقة، يتأكد دوما من إسدال الستائر، يمنعني أحيانا حتى من الخروج إلى المرآب لرمي القمامة.

أمي تنتقدني من دون فهم، فهي تريدني أن أتخلص من كل هذه الكتب من حوله في غرفته لأنها لا تعود عليه بغير الجنون. تخاف عليه منها، أن تفعل به ما فعلته بأبيه وبي. تقترح عليّ أن نبيعها. لا أعرف كيف أدافع عن معنى وجودها وقيمتها لدينا. حقيقة لم أقرأ نصفها، والنصف الذي قرأته لن أعود إليه، فتسألني ما حاجتي لها إذاً؟

ليس من السهل الدخول إلى غرفته. لا تفهم أن عليّ استئذانه في كل ما أفعله حتى إن دخلتُ عليه بكوب الشاي. بدأتْ تحثّني في الفترة الأخيرة على اختراق حياته ولفتِ نظره إلى أمور الدنيا. ما كنت أعرف ما هي أمور الدنيا. ما هي أمور الدنيا بربكِ؟ تستفزّني، تزيد من سخريتها تجاه كل ما نقول ونمارس. تقول لي إنه بحاجة إلى فتح الشبابيك الموصدة وتغيير المكان ليس إلاّ، بحاجة الى بستان وخضرة وأنهر. لا أحد يصل البساتين اليوم وإلا كانت رافقته بنفسها. اقترحتْ عليّ أن نبيع البيانو الذي يشغل نصف مساحة غرفته، سيعود عليّ بمبلغ من المال نحن أحوج إليه بدلا من الاكتفاء بمظهره كزينة. إنها لا تستسلم أبداً. أقول عن عمد إنه قطعة ترمزُ إلى الخير، مثل نخلةٍ أو كرمةٍ معمّرة أو عجوز في البيت، فتديرُ وجهَها مستهجنةً جنونَ ما تقوله ابنتها، ثم تعود لتؤكد لي بتهكم أنني على أية حال لن أجد بين الناس مَنْ يشتريه اليوم. تذكرني بإصرارها ككل مرة أنه مصدر لعنة ومرض في هذا البيت، وهي إشارة منها إلى أبي. بينما أذكر جيدا وجهه الباسم عندما نقل إلي خبر شرائه مع البيت من القسّ وأخته اللذين غادرا العراق. تُصوّر لي غرفة سلوان كأنها سجن خانق بالعتمة ورائحة زيت اللمبات والدخان. هي هكذا، لا تبدي رضاها عن شيء. اشتكتْ قبلا من رائحة الألوان الزيتية

أيضا، حين غرق أسعد أيام الحصار في الرسم ليل نهار في مكتبه. كان يبيع اللوحات للتكسّب. خشيت على سلوان في مراهقته العصيبة من الرائحة النفّاذة، اعتقدت أنها السبب في اصفرار وجفاف وجهه. اتهمتنا بالجبن. اشتكتْ أيضا من طعامنا الفقير، من خلوه من اللحم والسمك ما يجعل سلوان عليلا نحيفا. أترجاها ألا تتدخل في أمورنا، فتضيق بالبيت، تجمع أغراضها وتقطع زيارتها وتعود إلى البصرة.

هناك لحظات أعيشها استثناءً. يرسب فيها العتب والغضب مثل الغبار. إنها تأتي وأشعر أنها لن تتكرر. عندما ألمحه يغادر المكتب، عندما أسمع خطوته يتمشى في الصالة قليلا، حين يجمع الملابس المنشورة على حبل الغسيل أو حين يعبئ الموبايل، حين يجمع شعري ويربطه لي إن انشغلتْ يدايّ، حين يستقبل مالك المولدة الكهربائية في المنطقة عند الباب لينقده أجره. حين يطل ليسلم على جارنا الذي توقف ليتفقد وضعنا. حين يلحّ عليّ كي نمثّل أدوارا فيسحب لي طابورية البيانو لأجلس منتصبة الظهر ويشرع هو بتقليب دفتر النوتات أمامي ليعثر على معزوفة مفضلة لديه. أضحك رافضة دوري، لكنه يقف خلفي يحوطني بذراعيه ويمسك بأصابع يدي الاثنتين ويجبرني على النقر متوسلا: «هيا»!

يصعد السلّم ببطء ليتفقّد غرفته في الطابق العلوي. هو يأنس باستلقائه على سريره في غرفته القديمة أو يعيد تنظيم أوراقه وصوره والأشياء التي تخصّه. أتركه لساعتين أو أكثر وأذني تتنصّت حذرة لما يدور في الخارج. الطابق العلوي أكثر عرضة للقصف أو الهجوم

أو إثـارة الريبـة، كما أن الجو مـع وضع الكهرباء السـيء خانقٌ حار في الأعلـى، والغرفـة متروكة من دون تهويـة يعلوها الغبـار. ولمراقبتي له ومراقبته لي حيث ندور وحيدين في هذا البيت صرتُ أعرف متى يصعد إلى الطابق العلوي ويختلي في حمّامه. أتهرّب من النظر في وجهه حين ينزل درجات السلّم. صار هو يعرف موعد دورتي الشهرية وينبّهني إلى سهوي في رمي حفاظتي في سلة المهملات.

تتواصـل نظراتـه طويلا مع نظرتي بوجه سـمح. يلحّ علـيّ باختياره لإحدى سوناتات موزارت حيث تفعل ضربات البيانو فعلها بي بتباينها الرفيـع لأتبنى الخيال وأمنحه روحي وأنا أراه يتحرك بهدوء من حولي. يطاردنـي، يترصدني ويقيس حجم مقاومتـي المتناقص حين ينتزع مني ابتسـامة ويجبرني على مشاركته آهة لوعة لذيذة يطلقها عاليا من صدره وهو يشدّني إلى صدره. تمتزج أنفاسنا برائحة الويسكي التي أشتاقها في فمـه لما تسـتدعيه من صور قديمة في بالي. يـدور بي فأغرق بالضحك عندمـا تضرب ضلوعه ضلوعي وأستسـلم لدواري وهو يخنقني بضمّه لـي فأكاد أتهاوى ليحملني من على الأرض ويظلّ يدور بي وأنا أصرخ وأكركر متوسلة خائفة متشبثة به حتى ترمينا الدوخة على التخت بأنفاس لاهثة مقلقة مدهشة مفرحة تحرّك الألم في صدري.

جـاء صديقنا الدكتور حسـام في زيارة ليتابع من بعيد حالة سـلوان. كنت أنتظر هدوء الوضع الذي يسنح له أن يمرّ بنا وإن توجّب أن تكون الزيارة قصيرة. كانت تعابير وجهه تحمل ودّا. وفى بوعده وأتى بالدواء الـذي يرى انه الأنسـب حاليـا. كانت حبوبا لعـلاج الكآبة عـاد بها من بيروت. تحدث قليلا مع سلوان بشأن التدرج في تناولها في البداية.

في زيارة تلتها اقترحَ أن يكون مشـروعي القادم هو شراء كمبيوتر له مع خط للإنترنت، وتبرعَ للمسـاعدة فالحبوب لوحدها لا تكفي. ينظر صوب غرفته وهو يتمنى تحسن صحته وانفتاحه أكثر في الحديث معه. كان سـينصحه بممارسـة رياضة ما ورفـع بعض الأثقال فـي البيت كي تعوّضه عن ساعات الخمول التي يقضيها في سريره وتعيد إليه حيويته. يقرأ الامتنان في وجهي فيشدّ على يدي تعاطفا ومؤازرة. بإمكاني التكلّم معه حول سـلوان من دون رفض مسـبّق مني لما سيقوله. رد الفعل هذا كان يحـدث معي عندما يبدأ أسـعد أو أمي أو جيراننا بالتحدث بشـأنه، كنتُ أحتدم بداخلـي وتلازمني حالة من التوثّب إما لالتزام الصمت أو للردّ أيا كان التعليق.

زيارات حسام شبه استراحات أستطيع فيها أن أرتخي في جلستي. شعري معقوص إلى الوراء وربطتي جانبا على الطاولة والوقت كأنه مخصص لي. جاءني أيضا بصمغ خاص للخزف الصيني واستغربَ رفضي لصق نصفَيْ غطاء إبريق الشاي المكسور. ضحك غير مصدِّق أذنيه. كنت أحبّ أن أعدّ الشاي فيه وكان يراقبني وأنا أعتني بصفّ النصفين ليستقران في مكانهما. اختنقت وهو يسألني عن السبب. أعدت الإبريق إلى مكانه ولم يكن لدي سوى شكري لالتفاتته. أضحكَني تعليقه بشأن يديْ سلوان وأصابعه التي تشبه أصابعي التي كانت خشونتها تحرجني. أحببتُ كذلك انتباهته إلى طريقة احتضان سلوان للكتاب والتي أجدها أنا أيضا حنونا عطوفا. قلتُ له إن عنايته فائقة بما بين يديه وإن كان في تقليبه لصفحات كتاب. الكتاب يعني له كل شيء ولكنه كان دائما شديد العناية والتركيز على ما يمتلكه. أخبرتُه أنه عكف على تصليح الغرامافون قبل فترة وأفلح في تشغيله من جديد، وقد أرسل أسعد إليه الإبرة التي طلبها. ينهض حسام متمنيا أن يستمع في المرة القادمة لموسيقى مختارة من ذوق سلوان.

أسأله لِمَ أنت خائف؟ يقول إن صوت الله ضائع بين المولدات التي لا تهجع. يطلب مني أن أفتح الشباك ليعلو صوت الرعد، كي يزداد اطمئنانه إلى وجوده فوقنا. يقول لي إن علينا أن ننشغل به كي لا ينشغل عنا. ينهض من مكانه ويتكئ إلى الجدار. يقول لي إنه يشعر بأننا نعيش داخل صندوق زجاجي مغلق والهواء ينقص فيه شيئا فشيئا. تسكت المولدات وتبرق السماء. نستمع إلى المطر الذي يأخذ بالهطول. تجد السيول طريقها إلى سقف غرفته في الطابق الأرضي. مطر مدرار وكأن السماء تنشق فجأة وتنزل بأثقالها دفعة واحدة. صوت انهمار متواصل يشبه ارتطام أجسام صغيرة ثقيلة بالأرض يأخذ بالتسارع. تفوح رائحة التراب. يبتسم، وبنظرة حنان تخترق صدري يقول: «إنها رسالة الرحمة ووعد منه بالاطمئنان». أقترب منه وألتصق به. يحضنني ويطبطب مثل أب على ظهري، يبتسم لي وهو يمسّد شعري ويطبع قبلة طويلة على رأسي مطمئنا إياي.

تدب الحياة فيّ في اليوم الثاني في محاولتي ترميم ما خلّفته الأمطار من أضرار في داخل البيت وخارجه. يعينني في نشر السجادة على

السياج الجانبي في الحديقة. تتقافز القطط وتدور بيننا كأننا نستعيد يوما عاديا.

صوته الهادىء الفضولي يجعلني أكتفي بما نحن فيه. أخشى أن أعرّف التغيير الطفيف الذي طرأ عليه. تمكن بالتدريج من أن يسلسل أفكاره. يحكي لي عن زحمة الأحلام الغريبة التي تملأ نومه: صور مجسَّمة حقيقية للناس والجمادات حية وقريبة.

يستمع إلي وأنا أجيب على أسئلته، أحكي له عن طفولتي، صديقاتي، أصدقاء أسعد وزملائه في الجامعة. عاد حديثه مشّوقا، تنضفر فيه كلماتي بسهولة من دون أن تستوقفه أو يحاسبني بسببها.

أخشى مجرد القول في داخلي أن ذلك لم يحصل من قبل وأنه لا يعني غير تحسّن. نتحدّثُ عن كتاب يقرأه. تفاجئني أفكاره فأتمنى لو أستعيد زمني وطزاجته. أشعر بالصدأ وخشخشته في رأسي. ليته يبوح لي بشيء مما أجهله فيه، شيء ما ينقصه.

يحتجزني إلى جانبه. أنهض بتعب لأجمع أكواب الشاي وأقداح الشرب والصحون الفارغة، أكومها على بعضها في حوض غسيل الصحون. بعد قليل تشرق الشمس، أتوسل إليه كي يعتقني لأذهب وأنام. ينشغل بجهازه الصغير ونقل الموسيقى إليه. أرفع السماعات من أذنيه وأجعله يعدني أن يذهب للنوم.

منتصف 2007

أفزّ فجأة ظنّا مني أن يده تمسّد كتفي بحنان تصحّيني لأنهضَ من مكاني أمام التلفزيون وأذهب إلى فراشي. ولكنه جرس الموبايل الذي أيقظني بعد أن غفوت وليس غيره من يتصل في ساعة متأخرة من الليل.

يعفيني على الهاتف من مهمة التفكير به عندما أباشره بالسؤال عن أحواله. مازال يعجبُ من ابتكار هذه الآلة الصغيرة ويشكر التطور الذي سمح له أن يستعيد ما يذكّره بحياتنا بإيقاعها القديم عندما أقول «ألو». في صوته ضحكة وهو يقول إنه مشتاق لصوتي على الهاتف. يذكّره الحال بأيامنا الأولى عندما كان يتصل بي من هاتف عمومي في الشارع يبعد كثيرا عن محل سكنه مستغلا فترة عدم وجود أبي في البيت مساءً. كان يجمع النقود من فئة العشرة فلوس والدرهم ويتجرّع مضايقات الآخرين خلفه في الطابور. تعارفنا كان عن طريق الجامعة، إذ أنهى الماجستير وأنا في سنتي الثالثة من الدراسة. ما جذَبَهُ إليّ أني كنتُ امرأة نحيفة أولاً وبلا طموح ثانيا. كان يخشى الذين يضعون أهدافا في الحياة ويعرفون ما هو اليقين. خجلي وانسحابي أثار فضوله وأخذ بعقله. كنتُ

سارحة بينما الباقيات قد وجدن طريقهن، ذلك أكثر ما استوقفه. يقول بتباهٍ إنه اختياره الوحيد الذي لم يكن مترددا فيه على الإطلاق. لم تترك له الحياة فرصة للاختيار أو خلق إرادة وإصابة أهداف. أسكتُ مُنصتة لصوته على الهاتف. لا رغبة لي في السؤال ولا طاقة للتفكير في ما يلّم به. ما يؤلمه فهو الآن وباقترابه من الستين مازال لا يعرف ما يؤرقه وما يجب فعله. لمَ اخترته؟ لا أدري. ربما لأنه اختارني بغفلة عني. يعرف جوابي، يضحك. لقد حضر تجمّعا لأصدقاء عراقيين شربوا القهوة والشاي في مجلس عزاء الشاعرة نازك الملائكة التي توفيت في القاهرة. «لا أكثر من هذه المناسبات إحياءً لهزائمنا». عمّان والجو الحار والشاي والحديث الحماسي عما يجري في الداخل قَلَبَ معدتَه فغادر مبكرا. إنه يهرب من يقظته ليس إلا. التقى بصديق عزيز لم يره منذ غادر في مطلع الثمانينات إلى براغ. الوحيد الذي مازال مختلفا، وكأنه لم يغادر بغداد يوما. عادا بذاكرتيهما إلى الوراء. معه دخل عالم الموسيقى الكلاسيكية آنذاك وتاه فيه، لولاه لما اكتشف رهبة التوغل في رحلة لا تنتهي تشعباتها وشروحاتها في الداخل. راحا معا يبحثان بهوس في مجاهيله ويجمعان ما تيسّر من التسجيلات الموسيقية. لا إدراك لدينا لما يمكن أن تفعله الموسيقى بنا، وللأسف انقطع بحثه في ذلك وولى ذاك الزمان، والعطل أصاب الروح. يسألني رأيي في دعوته لشقته ليعدّ له بنفسه مرقة الباميا والرز. استحضرا في لقائهما الأول أيام الشباب واسترجعا الحماسة الوطنية ذاتها التي دفعتْ بالصديق إلى أن يكون شيوعيا زُجّ به في السجن ودفعته هو إلى التوقف والتراجع. لقد خاف من الغلوّ في كل شيء ما جعله يتراجع. يجهل أسباب انتظاره

اللحظة المناسبة لاتخاذ قرار ولقول رأي: «هل تعرفين، تركتُ حماستي منصرفا وقتها إلى الدراسة، انقطعت وأدرتُ للعالم ظهري، هل ترين في لقائي بالأصدقاء الآن إثباتا لحال؟ العودة مثلا إلى حيث كنا جميعا. ذات النقطة؟»، يسأل منتظرا جوابا مني.

يأخذ شكل مكالماتنا منحى جديدا عليّ. تطول المكالمة برغم أن لا شيء تغيّر، الدوران ذاته حول مشاكلنا.

كنتُ سعيدة في دخولي إلى الوسط الذي كان يختلطُ فيه أول ارتباطنا. حياتي الهادئة المنعزلة مع أبي والعوائل المحافظة المعدودة التي نعرفها وحركتي المحدودة اختلفتْ عن حياتِه. اختلفت الكتب التي قرأناها معا والأفلام التي شاهدناها والمسرحيات التي حضرناها والناس الذين تعرفت عليهم من خلاله. هو أول من جعلني أتحدث عما أحب وأُقبل على قراءة ما لم أفكر في أن أقرأه. أعجبتُ دوما باختياراته للموسيقى وهدايا أصدقائه منها.

لكن بريق ذلك الوسط انطفأ بالنسبة لي، والتكرار كالشيب غزا الإنشاء الجميل والأحلام والوجوه، عدا الحذر والخوف الذي ضاعف المسافات بيني وبين الباقين. العوائل والزملاء والأصدقاء مثل عقد وانفرط بمرور الوقت.

يخبرني أسعد أنه يعرف ثنائي الجنسية من قبعاتهم في عمّان. نضحك. أصدقاؤه وبعض من طلبته القادمين من دول أوروبية يتجمّعون بالصدفة، إما لتشييع أحد أو لأداء واجب تعزية. اليأس هو السمة المشتركة التي تطغى عليهم وعلينا. لقد ملّ نفسه وأصدقاءه، ملَّ إدمانهم على الحال ذاته، الشرب حتى الثمالة، اللغو الفارغ والفهم

الخاطئ والنقد اللاذع وغير الموضوعي للوضع في العراق. لا يمكن لهم تخيل ما شهدناه خلال السنة الأخيرة. ويستدرك بصوته الساخر «ومازال، فالوضع يتكشّف عن وجه أقبح كل يوم».

كان هو مَنْ أخبرني عن التفجير الثاني للمرقد في سامراء. كنت أجد في انفعاله مع الأخبار مبالغة. أخبرته أن مذياع المطبخ أصيب بعطب مؤخرا ومذياع سلوان لا يستقر طويلا على الطاولة برغم إلحاحي. لا يفهم إهمالي ولكني لا أتمنى أن نقف طويلا عند هذه التفاصيل التي ملأت بالتدريج حياتنا. ما الذي بمقدوري فعله؟ برغم هذا أثق في قراءته للأخبار وقلقه كان في مكانه عندما هزّ التفجير في سامراء بغداد كلها. أُعلن حظر التجوال ومَنْ يخرج كان مغامرا بحق. الكثيرون حبسوا أنفاسهم وتوقعوا بدء جولة جديدة من القتل والرعب. شعرت به مرعوبا من الحدث عندما اتصل بي وكلّمني، مرّ عام منذ أن حصل المشهد عينه إثر التفجير الأول لذات المرقد مستهدفين فيه ضريحي الإمامين الهادي والعسكري؛ يقول هذه بالطبع هي جرائر الحملة الإيمانية التي تعود الى منتصف التسعينات، «ألم أحدثكِ عن التطرف والتشظي الذي أحدثته داخل وخارج العراق لكلا الطائفتين»... وكأني الوحيدة التي جمد دماغها بينما أدمغة الكل تعمل فقد اتصلتْ أمي أيضا لتنبهني؛ تنقّل الناس من مكان إلى آخر طلبا للأمان، ما يمسّ طائفة هنا يلحق الأخرى هناك.. الله المعين وخذي حذرك والحال أسوأ في البصرة و... ولم يمرّ وقت طويل حتى اتصلت ثانية لتعلمني عن تفجير مرقد طلحة بن الزبير.

يخبرني أنه محتار في اتخاذ قرار. إنه لا يدري ما سيفعل ويسألني

عن رأيي. لا أريد أن أقاطعه. ولكن ما عسى أن يكون رأيي؟ أقول له إن البلد مازالت في حالة طوارئ، المليشيات مازالت... تنطفئ الكهرباء فجأة وأتعبُ من أنفاسي ومن حملي للموبايل. أشدّ ثوبي بعيدا عن جلدي الذي التصق به بسبب الحر. العرق يتصبّب والحرارة تشعل أطراف قدميّ وتحرقني فأنهض لأتحرك في مكاني. يُشغّل سلوان خط المولدة أثناء ذلك فيشتعل الضوء وتتحرك المروحة. إنه يشتاق لبغداد ويرتعب لوجهها الأخير الذي تخلّف في ذهنه. «حتى الأمل الذي لا يمكن إنكاره من ناحية أخرى يزعجني، هل تفهمينني؟». يود أن يكتب عن ذلك. طلب مني أن أرسل له حقيبته الجلدية التي رزم فيها مسوّدات ما كتب. لا إيقاع ليومه وهو ينوي استغلال وقته. لقاءاته بالأصدقاء على العموم مجرد تأكيد لشعور بالخذلان مما حدث ويحدث له. «كنت ميتا من الخوف في بغداد، هل تشعرين بالخذلان مني؟» يسألني فجأة. أضحك، ولا أدري لماذا. ربما لأني أتعب ولا جواب برأسي لكل أسئلته. ولكنه حرّك شيئا ما، اشتقتُ إليه بسؤاله هذا. «لا أدري»، أجبته بسبب انتظاره الملحّ وأكملت أمازحُهُ «أنتَ لم تتركني من أجل أخرى على أية حال». وإن كان فَعَل ما الذي كنتُ سأشعر به؟ يسأل. ضحكتُ ثم سكتّ، ثم بعد ثانية «هل هناك ما تريد أن تخبرني به؟». «لا لا ليس هذا إطلاقا، وددتُ أن أعرف إن كان مكاني مازال كما هو». «لا ليس تماما»، قلتُ فأسرَعَ قبل أن أكمل «أعلم أعلم». «مالذي تعلمه؟ هل قررّتَ العودة؟»، «لا لم أقرر شيئا بعد». «ليس الأمر كما تظن، لكنكَ عقّدتَ الأمور عليّ والحل بمغادرتكَ كان الأسلم، خوفا عليكَ، هذه هي قدرتي أسعد، لكل منا طاقة محدودة، وأنتَ تعلم ذلك، ما

كنتُ لأتخلى عنكَ لولا أنك دفعتني إلى ذلك». شعرتُ بالتعب فجلستُ في مكاني على الكرسي. كانت الساعة متأخرة جدا. «أعلم أني جعلتُكِ تختارين بينه وبيني، ولكني لستُ بطلا، لم تكن عندي قوة جبارة لأحتملَ لجوءَ سلوان اليكِ في سريرنا». قلت له على الفور «ولكنه طفل». «لا، بل رجل، أنتِ تريدينه طفلا لتستري عليه بما يفعل ويقول». احتدمتُ. لزمتُ الصمت لئلا يعاد النقاش في هذا الموضوع ثانية وأظنه قد حَدَسَ ذلك. لا أريد له أن يرفع الغطاء الآن عما اختلفنا بشأنه. لن ينفع النقاش. كنتُ أسمع صدى حركته واضحا عبر الهاتف. أترجمه. هو يعرف ذلك وأنا أعرف أنه سيتراجع. أمهله ليقول: «لنبتعد عما كنا فيه، إن الشقة فارغة ومكانكِ فارغ والصدى فظيع». تنعدم رغبتي بالتعليق. يكمل الحديث، يقول إنه عندما يدخل المطبخ ليعدّ القهوة أو يطهو الرز كأنه في معركة مع القدور والملاعق والصحون بسبب الصدى الغريب في هذا الشقة. يقول إنه يشعر كأن هناك من يقبع في مكان ما في هذه الشقة متربصا له كلما تحرك أو نطق. لكنه يعود ليقول لي إنه قد تساءل كل هذه الفترة عن ماهية الأبوة. إنه فكّر في الأمر كثيرا في ما أشعر به أنا كأمّ. أتعبَهُ الأمر واعترفَ أمام نفسِه أن لا طاقة له على تحمّل ذلك كرجل. «أنتِ مخلوقة ذات قوى خارقة، غير طبيعية، لا تكلّين، ولكنكِ أقصيتني أيضا، أشعر أنكِ احتفظتِ به لنفسكِ، لم أجد لي مكانا، لم أبدُ أمامه كما أريد له أن يراني». «وكيف تريده أن يراك؟». لم يجبني. «هل فعلا فكرتَ بالموضوع كما تقول، كنت أريد أن أوفر عليكَ عبء مسؤوليته؟». «أجل، وأنا أفهمكِ أيضا ومن المؤسف أننا لم ننشأ في محيط أكبر من هذا الذي تربينا عليه لنتمكن

من توسيع عقولنا لنحلل الأمور من زاوية أخرى، غير تقليدية، أعني أن نفهم ونقدّر الدوافع بشكل أفضل، أو على الأقل نَزِنها بشكل غير غريزي». استغربتُ تعليقه الأخير. صوته حمل استسلاما. لم أحدس في أي طريق كان يفكر أو يسير.

فجأة انطفأ ضوء المطبخ وعلا في الوقت ذاته صوت الموسيقى من غرفة سلوان. أطبقت الظلمة عليّ. تلمستُ الطريق إلى الصالون والموبايل في أذني فوجدته قد فتح باب غرفته وجعل الأنغام تصدح عاليا جدا في البيت. لقد حوّل خط الكهرباء الذي يغذي المطبخ إلى غرفته لكي يشغّل جهاز الموسيقى. استغربتُ فعلته وهو يعلم أنني أتحدّث مع أبيه في المطبخ. لم أقل شيئا والموبايل مازال لصق أذني. «إنها الحركة الثانية لـ «رافيل» في «المرايا»، كم أعشق هذه المقطوعة بالذات، ضربات البيانو متباعدة ترنّ ترقّ وتنحف وتحتدّ، إنها الطيور الحزينة تتخاطب مع بعضها قبل أن تلحق بالطير الذي يعاني من وحدته والذي ينادي على الجمع في نواحه، نواح... إسمعي.. ياه لم أسمع المقطوعة هذه منذ زمن» قالها بانفعال وتساءل بحماسة عن كيفية عثور سلوان عليها. أشعر بالتعب والانزعاج من الظلمة فأعتذر لاضطراري إنهاء المكالمة؛ عليّ شحن الجهاز الذي سينطفئ. ينسحب في الحال ويطلب مني أن أعتني بنفسي. راح شيطان في داخلي يوسوس: سلوان يتنطّط فرحا في غرفته!

كان الفاصل في حياتنا هو نقل أسعد إلى الأرشيف أوائل الثمانينات وحرمانه من التدريس كعقاب رحيم للمدرسين غير المنتمين لحزب السلطة. وبقيت حياتنا تحت المراقبة. انتشر الخبر بسرعة البرق وتحاشى اثرها بعض الأصدقاء زيارتنا. كما نقلت إلي زميلتان في العمل رصد رجال الأمن لي، حتى عبر الأحاديث التي كانت تدور في التواليت بيني وبين أخريات. أُجبر أسعد لسنوات على الجلوس في مكتب مدفون في قبو. كل ذلك كان متوقعا وغير متوقع في الوقت نفسه. تمّ إبعاده مع زملاء له عن الكلية وقضى فترة تعتيم طويلة هناك كما اعتادوا أن يصفوها. كان يشبّه نفسه والباقين بكتَبَة العرائض من جنس الخلد. في عزلة عن العالم كالمساجين ولا شيء غير التوقيع في سجل الحضور واستكانات الشاي التي تلهيهم، غارقون في ظلمة أكداس الأضابير والملفّات التي تعود إلى رئاسة الجامعة. لم يستطع الاستمرار في عمله. القبو جعل منه إنساناً كئيباً قليل الكلام. كان خوفنا في البيت حينذاك يدور حول ما سَيَلي القبو.

صار أبي الذي كان تاجرا شاطرا في شبابه بطرا في كبره، يلتقي

بأناس بطرين مثله لأسابيع يبدّد فيها كل ما جناه في تجارته لأشهر. قد يمرّ الشهر والشهران وهو معرِضٌ عن العمل، متقاعس يقضي الوقت ساهرا مع المجموعة نفسها التي لا أعرف لها هوية غير التخفّي. من بينهم سجناء سياسيين من الستينيات غادروا السجون ولم ينتظرهم بيت أو عمل فعاشوا منعزلين، على الهامش الذي اختار أبي أن يشاركهم إياه. لم يكن يعترف بالوظيفة في الدولة وقد قاطعت عائلته أحد أفرادها الذي اختار مهنة التدريس، واختلطت عليّ الأسباب فأبي الذي يحيلها إلى الحلال والحرام هو نفسه الذي يترفع عن العمل ولا يجده أسلوبا يليق بحياة من ينتمي الى عائلته. تجارته كانت في طريقها إلى الأفول أيضا إن لم يأت بخطة لإنقاذها. توقف الاستيراد بعد دخول البلد الحرب مع إيران، ضعفت قيمة الدينار واستبدلت الجلود الإيطالية بالعربية. أغلق محلاته في الشورجة بعد أن أصابه التعب والملل والاستياء من المهنة. انسحب تماما من السوق بعد أن تكرر أمر فرض دفع التبرعات على التجار الذين كانوا يُكرهونهم على المشاركة في حملات التبرع تحت التهديد والتخوين وخلافه. حدث أن كان بمزاج عكر يوما ما فرفض أن ينقدهم فلسا، متصديا لأحد السياسيين المتنفذين من الذين تدخلوا في وضع السوق وتحكموا به. عاش أيامه يسرد الحادث للآخرين على سبيل النكتة، بينما عشناه نحن في رهبة. ورغم انقطاعه لا أحد كان سيصدق أن الموقف سيمر بسلام.

لا يحب أسعد أي عمل لا خبرة له فيه، يرفض الجلوس في محل جلود وأحذية، كما رفض شراء مفقس أو منحل، وبالطبع لم يحب أن يكون سائق تاكسي، وهي مهن حرة عرضت عليه خلاصا من الوظيفة

الحكومية وكان قد لجأ إليها كثيرون لتدبر مصدر أفضل للرزق. حينها انشغلنا بيومنا على نحو غريب. قررنا أن يقدم استقالته حال انتهاء الحرب مع إيران وانهمكنا في تحضير جوازاتنا فور السماح بالسفر. لست أدري إن كان المشروع فكرتي أم فكرته. مثل هذه القرارات تحتاج الى طاقة لا نملكها لا أنا ولا هو لولا الظرف الذي فرض علينا. اختلف شكل الحياة حتى ما عاد الناس يتذكرون كيف كانت حياتهم. الحظ السيء والإرادة السيئة تكفلتا بالقضاء على كل ما خططنا له. دخول الجيش إلى الكويت وتزامنه مع مرض أبي حدث ليحسم مخاوف كانت في داخلي، تبعه شلله المفاجئ الذي تطلّب إلغاء سفري وانتقالنا من ثم للسكن معه.

ارتحتُ للواقع الذي فُرض عليّ. لا أقوى على التفكير بمغادرة مكاني لجهة مجهولة. ازداد شعور سلوان بالخوف لأدنى حدث ولأقل حركة تطرأ على حياتنا. طرأ تغير ملفت عليه لم أفهمه، تبعه توتر صامت تصاعد بيني وبين أسعد بعد عودته من عمان. ما لا نستطيع السيطرة عليه في حياتنا يتخذ شكل معضلة تتضخم بمرور الوقت. كان الجميع حائر بأمر ما، يتخبط في اتخاذ القرارات. ولعلّ سعير سباق الرحيل من حولنا هو الذي أخافني أيضا.

تحدثتْ أمي مع جارة لنا واتفقت مع ابنها حول الأجرة ليقلّني بسيارته ويعيدني إلى البيت. ستعتني بسلوان ريثما أنهي مشواري في استحصال بعض الأوراق الرسمية من أجل استلام راتب أسعد.

كان زميل لأسعد في المعهد قد تولى متابعة الأمر بعد ترتيب الإجازة المرضية له. أكّد لي أثناء لقائي به أنّ أسعد فعل الصواب بسفره فهو لا يتوقع استقرار الأمور في وقت قريب. هو وزملاؤه يشعرون بالتهديد المستمر، وهم يجدون في أمر بقائي في بغداد خطرا وحبذا لو تبعْتُه، كما أن المرأة لا يمكن أن تتدبر أمرها لوحدها تحت الظرف الذي نعيشه. «الأفضل أن تلتحقي به برأيي»، قالها وهو ينظر إلى الأرض. كنت أتفحّص وجه هذا الزميل الذي بدا كأنه يتحاشى النظر إليَّ ازدراءً وليس تأدبا أو حياءً. شعرت كما لو أنهم تدارسوا الوضع وأرسلوا إلي بمبعوث ليعلمني بالقرار. حرارة الجو غير محتملة فتماسكت وشكرته وأخبرته اختصارا للحديث بأنني سأغادر قريبا.

أهرول أسوة بالباقين لأصل البيت بعد أن أخلَّ السائق باتفاقه مع أمي. شعَرَ بالأجواء مشحونة متوترة واعتذر عن انتظاري وانطلق. لا

أدري إن كان الناس يتلفّتون بعشوائية تلقائية من حولهم أم أنهم باتوا يرصد بعضهم البعض ريبة. ضايقتني كلمات زميل أسعد طيلة الطريق في عودتي، توجست خوفا وشككت فجأة في هويته، ربما لأني لا أعرفه، ولكني لا أحتمل كذلك حشر نفسه وزملائه في العمل في حياتنا وتدخّلهم في قراراتنا. كنت أغذّ الخطى وسط نفير المنبهات لأتغلب على خوفي ولأحتمل ملابسي الثقيلة والحر الشرير والعرق المتصبب والحذاء الذي جمع التراب والعرق وطيّن قدمي.

عدتُ فوجدتُ أمي قد استعانت بالجيران في تنظيف البيت وغسل ممراته الخارجية. كان عطرا نفاذا رخيصا دخيلا قد انتشر. عينا البنت مغرقتان بالكحل والأحمر على شفتيها له منظر مقرف. شمّرتْ عن ساعديها ورفعتْ ثوبها وحشرته تحت سروالها من الجانبين، صدرها الكبير نصف مكشوف وهي منهمكة في الكنس. استغربتُ الصورة واستشطتُ غضبا بسبب مخطّط أمي الأحمق. مهما بلغ احساسها بي وبحالة سلوان لا تستطيع فهم حالته النفسية، فهو لا يريد لغريب أن يدخل البيت. خشيتُ أن تهدمَ ما كنت أحاول أن أرممّه فيه. قالت إن الحاجة أرسلت في طلبها لتُعينها. لم تأبه لما رأته من استغراب في وجهي. تركتني واستدارت لتلتقط عباءتها من دون أن يظهر على وجهها الحرج. لم أرها من قبل ولا أدري كيف وصلت أمي إلى بيتها بسرعتها الفائقة وكيف تعرفتْ على الشارع حتى نهايته بكل ساكنيه وكيف اتفقتْ معها. تبعَتْها لتنقدَها مبلغا من المال ثم عادتْ وقد بدا الانزعاج التام مني واضحا في نظرتها. تركتني أتكلم وهي تطوي وترفع أكمام ثوبها. دخلتْ الحمام للوضوء وأنا ألاحقها بأسئلتي. كنت

أتحاشى الصياح خوفا من سماع سلوان لتفاصيل مشادّتنا، ولكني كنت مصرّة على كشف مخططها في التدخل في حياتي. قالت من خلف الباب الذي صفقته بوجهي «أي مخطط.. البيت الذي سيدفنه الغبار أم الزفت الذي يعلو الرفوف والكراكيب التي تملأ درجات السلّم والجرائد المكوّمة التي لمّت العثّ؟ هل رأيتِ التراب المتراكم تحت الأسرّة، والأنقاض في المرآب، والحديقة التي لا تصلح إلا مكانا للكلاب السائبة؟ أي مخطط يا خايبة يا تعسة؟». وكأن ما قالته لم يكن كافيا فتحت باب الحمام لتصيح بأعلى صوتها «البيت خرابة، الطلاء متقشّر والأبواب مسخّمة والسقوف ترشح والستائر سود مصفّرة وأنتِ لا ترين من حولكِ غيرَه. انظري إلى المكان حولكِ. إنه مكان يصلح للأشباح لا الآدميين. انظري إلى وجهِه ووجهكِ وسترين البيت فيهما، كل ما يحدث من ويل وضيم من حولنا بكفّة وما يحدث في هذا البيت المظلم في كفة أخرى، إصحي»، قالت الكلمة الأخيرة وهي ترتجف، ثم أغلقتْ باب الحمّام ثانية.

«من أين جئت بهذه الرخيصة وهو في هذه الحال؟» صحت.

سمعتها تقول من داخل الحمام: «اطلعي من هذا البيت الذي قبرتِ نفسك فيه، سافري، شوفي العالم، عجيب، غير معقول ان بنتا عادية تثير كل هذا الخوف فيكِ؟». هاجمني غضب تعيس. ضربتُ باب الحمام. مرة، مرتين، من أين جاءت بهذا كله؟ من أين جاءت بها؟ أخذتُ أدور من حولي مثل دجاجة قُطع رأسها. لا أجد مخرجا لألمي. أقول لها وأكرر هل هي حياة طبيعية هذه التي نحياها؟ « «أجيبيني بربكِ، أيتها العاقلة؟».

ضربتُ الباب بما أوتيت من قوة ومشيتُ إلى غرفتي كي لا أسمع منها المزيد.

مشادتنا أدّتْ إلى مغادرتها البيت غاضبة تحت حظر التجوال، حزمتْ أمتعتها وغادرتْ ولم أعترض. مرّ بعض الوقت، قلت ستعيدها المفرزة من دون شك. توقعتُ رجوعَها. قصدتُ الصالة وأزحتُ جانبا من الستارة التي تغطي الجدار المطل على الحديقة بعرضه وطوله. النوافذ موصدة منذ زمن. تيبس الغبار طبقات سميكة على الزجاج وبالكاد تبينتُ أشباح أشجار... ها أنا أتنبه إلى شيء بفضلها! لم يكن السفر أمينا في ظل هذه الظروف المخيفة، وعناؤها ليس بالقليل بالنسبة لعمرها، عدا عن الكلفة التي تتحملها، لكني أعرف عِنادها. هي على أية حال لم تكن تخشى شيئا في حياتها، ولم ترتجف لا لأمريكي ولا لعراقي ولا لإيراني.

رؤوس تظهر بالكاد عبر السياج. إنها حركة الجيران المنهمكين في توزيع الطعام منذ يومين، قامت أمي بواجبها عوضا عني في المشاركة فأنا لا أجيد مثل هذه الأمور. مرّ عام على وفاة ابنهم الذي قتل عند باب البيت. انهم يواصلون حياتهم كما أرى! مشادتي مع أمي جعلت سلوان يغلق أذنيه بسماعتيه ويقفل الباب على نفسه. ألقي نظرة دائرية إلى الصالة، وإلى سقفها العالي، كانت مظلمة لولا الشمس التي ينسّل ضوؤها المحمرّ من بين الفتحات. الهواء محبوس خانق قديم فيها. تمتدّ يدي تتلمّس الخشب المحفور أعلى مسند الكرسي. إنها صالة الاستقبال الكبيرة بالطقم ذاته الذي اشتراه أبي أول السبعينات قبل أكثر من ثلاثين عاما. كنت مدللة البيت والبيت كلّه لي وتحت تصرفي، المذياع والمجلات والروايات وعتبات السلّم الأولى الباردة والوقت

مفتوح. حتى محيط الجامعة بكل انفتاحه ومغرياته والحرية التي كنت أتمتع بها، كل ذلك لم يكن ليخفف من الشعور برغبتي في العودة إلى البيت. أمسحُ براحتي قماشة ذراع الكرسي. احتفظتْ قطع الأثاث بشكلها والسجادة التي غطت مساحة كبيرة من بلاط الارضية بألوانها. كل شيء ساكن هنا عدا أثر شريط خطواتي اليومي رواحا ومجيئاً على الممر المترّب بين حدود السجادة والجدار، من الباب عند المدخل إلى الشباك.

تؤذن الموسيقى المنطلقة من غرفة سلوان بعودة الكهرباء المفاجئة فأفزّ في مكاني. إنها الأغنية التي تبدأ بالمقطع المنذر لشوبرت فينقبض صدري. لا أحبّها. عثر عليها بالصدفة في بحثه على الإنترنت وصار يعيد عزفها مرارا حتى زهقت. يتردد صدى الصوت الأوبرالي في أرجاء البيت الخالي الذي يمهّد لتراجيديا مخيفة. يطول هذا المقطع الذي أحتمله بالكاد كل مرة وأنا أترقّب الانعطافة الحادة في الاحتدام والقوة إلى الهدوء واسترجاع الأنفاس، أتوقع ضربة تحلّ إثرها موسيقى حالمة يتم الإعلان فيها عن اجتياز حالة صعبة. لكن سلوان يخرج من غرفته ليحدثني عن طفل مذعور يلجأ إلى أبيه لطلب النجدة لأن الموت ما انفكّ ينقضّ عليه. يتخيل سلوان هذا الطفل مثل فأره المرتعد المتراكض بين النيران مدركاً أن الموت سيفتك به. أشمّ انفعاله في حُرقه. يشبك يديه حول عنقي ويضمّني إليه ويقول بصوت مدفون إنه الطفل الذي سيموت في النهاية. ظننته كفّ عن أفكاره السوداء، «ما هذا الذي تقوله؟»، يضيق صدري فأدفعه بعيدا عني، يزداد ألم ظهري، كما لو أنه لم يعد يقوى على حملي، أترجاه أن يذهب ويسكت الموسيقى.

غابت أمي. والموبايل لا يردّ لعدة أيام. ضحكت على حالي وندمت على عراكنا الأخير. اتصلتُ بجارتها لأتاكد من سلامة وصولها على الأقل. السفر عبر الطرق البرية مجازفة كبرى. أخبرتني أن مرض زوج أمي يحول دون تحركها والوضع في البصرة غاية في السوء. احتجْتها. افتقدتُ أنفاس سخريتها في هذا البيت الخالي، اشتقتُ إلى طريقة تبسيطها للأمور، إلى تماشيها مع الحياة التي اختُزِلَتْ إلى احتياجات تكاد لا تميّز الإنسان عن الحيوان إلا قليلا.

عدت واتصلت بعد يومين ولكنْ عبثا، فاتصلتُ بجارتها وطلبت منها بتوسل أن تساعدني في الحديث معها لأمر ضروري. اتصلتْ أخيرا وقد بدا صوتها متعبا. كان سلوان هو المنقذ، تعللتُ به وهو المشترك الأكبر بيننا. أفضْتُ في الشرح مخافة أن ينتهي الحديث أو تحدث فراغات لا أجيد تلافيها معها. تصدمني استنتاجاتها التي تُجاهر بها. أجهل كيف أتعامل معها في داخلي. «إنه محروم من الجنس يا ابنتي». أخجل من كلامها المباشر. أرفض سماعه. يضايقني ولا أعرف ما أقول. ولأني كنت أتمنى حقا لو كان ذلك هو العائق. هي تستهزئ

بقولي إن الأمر لا يتعلق بالنساء. تتهمني بأني أنا التي تحولُ دون ذلك. عليّ أن أبتعد عنه ليكون رجلا. أمقت هذه النصائح وأضيق بتركيزها على الجنس. ترى أن عليه أن يبتعد عن الكحول فهو أكبر مدمّر لطاقة الرجل. لكنها وبالرغم من كل شيء لمستْ تغيرا إيجابيا طرأ عليه في آخر سفرة «جسمه كان ناهضا وحركته أنشط بكثير والرجل يُعرف بذلك يا ابنتي». وقْعُ كلماتها المقتصدة كان له فجأة أثر كبير في نفسي. فرحتُ جدا، مثل طفلة وأكثر. ارتحتُ لمكالمتِها وبقينا نتجاذب الحديث. ضحكتُ بسرّي. كنت بأمسّ الحاجة إلى مَن يطمئنني على حالي وحال ابني.

لا يرتاح سلوان لوجود حسام في البيت فينسحب إلى غرفته ما إن يُطرَق الباب. أقدّر مدى كرهه للأطباء ولكني طلبتُ منه على الأقل أن يطلّ ليلقي التحية ولنتحدث بشأن دوائه ومن ثم يستأذن. يظل في غرفته حتى يغادرنا. بإمكان حسام تفهّم موقفه وهو على ثقة بأنهما سينسجمان مع الوقت. حسام العراقي بامتياز من أمٍّ وأب لبنانيين مسيحيين. وُلد ونشأ وتربى في بغداد. درس وعمل طبيبا على خطى أبيه. ورَثَ عمارة أبيه في شارع السعدون كما ورث حبّه لاقتناء السجاد اليدوي الثمين. لا يتخيل نفسه في مكان آخر غير بغداد. أنتظر مكالماته وزياراته. نتناول كوب شاي، الابريق الأثير بيننا ذاته، نتبادل حديثا عما يجري يسلّمني خلاله ما يكون قد حصل عليه من دواء أو كحول أو سجائر وحتى فاكهة أو خضار وعصير. أثناء حديثي معه اكتشفتُ أن والدته قد جاءت له بذات المدرّسة الروسية التي تلقيتُ على يدها دروسي في الموسيقى والعزف على البيانو أوائل السبعينات بعد انتقالنا إلى بغداد. أبي كان هو مَنْ اقترح هذه المدرسة عليّ. تذكرنا التمارين ذاتها التي تلقيناها، إشارات المدّرسة، ملابسها ولكنتها. انطلقتْ ضحكاتنا

للمفاجأة عاليا وأنا أنظر إلى يديه. رفعهما في الحال لأتفحصهما جيدا وهو يبتسم، وأخفيتُ أنا يديّ خلف ظهري خجلا. نصمت وليس غير بطنه التي تصعد وتنزل لصعوبة تنفسه. ينظر طويلا إلي فأنظر بعيدا. كما لو أنه ينتظر مني أن أشجّعه على الحديث معي في ما يرغب. لا أدري لِمَ يتخلّفُ لدي شعورٌ بأنه يغادر كل مرة دون قول ما يريد. هناك انكسار في عينيه يثيرُ عاطفة ما بي تجاهه. كنتُ أخشى عليه مشواره الصعب والامتحانات التي يتعرّض إليها خلال الطريق وصولا إلينا. لكنه هو الذي كان يحرص على ذلك، متابعا حالة سلوان بتفاصيلها معي. يكاد يكون الوحيد من بين الأصدقاء الذي سمح له ظرفه بالتواصل معنا. يطمئنني حال وصوله بيته.

حدَثَ أن اشتدّ قتال بالقرب منا يوما فتعذّر عليه العودة إلى بيته في شارع 62. أصررتُ على مبيته عندنا. أعددتُ له فراشا في الصالون الصغير على الأرض ليباتَ ليلته. خجلتُ من التخت الذي تهرّأ غطاؤه وفتيت الإسفنج المأكول ظهر من تحته، ومن الحمّام بجدرانه الرطبة والحنفية المكسورة والصدأ الذي رسم أنهارا خضرا في حوض المغسلة. أعرتَه بيجاما من خزانة الثياب لأسعد. لم يكن بوسامة أسعد وطوله. كان قصيرا سمينا ومع كرشه اللافت كان صعبا عليه تزرير القميص. كدتُ أعلّق لكني أحجمتُ.

كان يحب خريطة البيت بتفاصيله القديمة. تجولنا بين لوحات الصالة وتحدثنا عن قصصها تحت ضوء خافت. يقول إن لدي «بغدادي» داخل بيتي، كما الكثير من أصدقائه الذين هرّبوا بغداد وأخفوها داخل بيوتهم، أغلقوا الستائر خوفا عليها، يطمئنه أن هناك بيوتا على شاطئ

دجلة في الكاظمية أو المنصور ترفل بها. يهتز الضوء بيده. أُعجبتُ بما قاله. صوته المتأثر حرّك يدي، ارتفعت تمسّد ذراعه تواسيه فأمسكَ بها ولثمها قبل أن أسحبها.

سهرنا في المطبخ عند الطاولة نتحدث تحت ضوء الفانوس حتى الفجر. صببتُ كأسين. شكوتُ له انقباضي المفاجئ عندما تغيب الشمس، انفعالي وقلقي لأصغر التفاصيل التي تخصّ سلوان، عطشي وغيره من أعراض غريبة أشعر بها. ذكّرني بالأمر الذي كنتُ قد سهوتُ بالفعل عنه. قد تكون هرموناتي التي تؤذن بانقطاع الدورة وما يرافقها من «خرابيط» في أركان جسدي. «لنقل انها من الإيجابيات على الأقل أن تنشغل المرأة عندنا في ظرفها هذا عن مراحل في حياتها لا تخلو من تعقيدات مثل منتصف العمر وما يسمونه سن اليأس، ربما ستوفرين جرعات من الهرمونات التي كانت ستوصف لكِ بما لها من تبعات على جسدكِ»، قالها وهو يتفحّص وجهي بخليط من عيني طبيب ورجل: «مازلتِ جذّابة» وهو يرفع بيده خصلةَ شعري المحبوسة خلف أذني يحررها لتنزل على خدي. سكنتُ في مكاني. حلّ صمت بيننا وعلا صوت أنفاسه التي كان يجرّها من فمه. «ماذا لو عثرنا لكِ على حلّاق قريب، لنخفي هذا الشيب فقط؟»، ارتجفتُ قليلا لكني كنت أسمعه وأنا مرتاحة في أعماقي وضحكت: «إذا ما نجا هؤلاء المساكين بحياتهم!».

رفضَ سلوان التحدث معي في اليوم التالي. ترَكَ له حسام مجموعة اسطوانات مضغوطة جاء بها من بيروت، مختارات موسيقية كان على يقين من أنها ستحوز على إعجابه. أردتُ أن أؤكد له احتياجَنا الملحّ لمساعدة الطبيب في هذا الظرف العصيب لكنه تركني والإسطوانات

في يدي واستدار ليظهر لي عدم رغبته في الاستماع. تبعتُهُ: «سلوان، إسمعْ، لم نفعل شيئا، لا أنا ولا الدكتور من سيقدِمُ على فعل خاطئ إن كان هذا ما يدور برأسك»، قلت له دفعة واحدة بانفعالٍ فتوقف فجأة وضحكَ وهو يستدير وينظر إليّ. خفتُ عليه. سيتوقف قلبي إن كان يظن للحظة أنّ حبي له قد نقص مقدار ذرة. سأموت لو تصور إنني خنته. كان صدري يعلو ويهبط من دون قدرة مني على السيطرة عليه. لأول مرة ينظر إليّ بهذه الطريقة. ارتسمت على وجهه ابتسامة خبيثة طبيعية لفترة قبل أن يقول بصوت رجل: «صديقُكِ هذا مِثليٌ، «هومو»، وستكونين غبية جدا إن لم تلحظي ذلك». كلماته قذفتني مرة واحدة مسافة إلى الوراء. تفاجأتُ وشعرتُ بحَرَجٍ أمامه لم أعرف كيف أداريه. سرتْ رجفة في جسدي وتهدّل شعريَ وغطى وجهي. تقدّم ووضع يده على كتفي فانتفضت. مال وقبّلني على خدي كأنه يعتذر فالتفتُ ذراعاي حول عنقِه برغبةٍ حارقة في أن يحضنني بقوة. بدا طويلا فتشبّثتُ به، برقبته، قبّلته في كل وجهه بجنون، بللت كل وجهه بدموعي التي أخذت تهمي لكنه أفلتَ يدي من رقبته وتملّص مني بقوة. كلانا يلهث وقلبي يكاد ينخلع من مكانه. يربّت على ظهري ويأخذ الاسطوانات ويدخل غرفتَه.

كيف عِلم بذلك؟ جفلتُ في مكاني. كيف تحوّل سلوان فجأة الى رجل يوحي بأنه يفهم حقا ما يقول ويدرك ما يجري من حوله؟ من أين لي أن أعرف؟ أتكأتُ على الباب، ظل قلبي يدقّ بعنف. هل كان يستغفلني! كما لو كان يسخر مني. مسحت وجهي واسترجعت أحاديث حسام معي وإشاراته. إنها لم تخل طيلة الوقت من ملاطفات بين مكالمة وزيارة!

أواخر 2007

لا تكّف أمي عن مفاجآتها مذ ولَدَتني؛ دخلت على غير ميعاد مع فتاة غريبة. أربَكَني هذا. كنتُ بين أن أدع الأمورَ لتسير كما يُراد لها وبين أن أقفل الباب علينا أنا وسلوان وأبقيها مع البنت خارجا. ارتدت الفتاة الأسود، متلحّفة به تماما. يغطي الحجابُ حنكها ونصف جبهتها ونصفَيْ كفّيها. حذاؤها أسود وجواربها سود سميكة وحقيبتها سوداء من الجلد الاصطناعي الرخيص. شعرتُ بغمّة في ذلك المساء الذي دخلتا فيه تحملُ كلٌّ منهما حقيبةً صغيرة. لولا مشقّة طريق السفر الذي عانتاه كنتُ عاندتُ وظللتُ في فراشي وتركتُ لأمي أن تتصرّف وتقوم بواجب ضيفتها بنفسها. «سأعدّ الشاي»، حالما قلتُها قفزتْ الفتاة بقامتها الناعمة لتقولَ إنه مازال في زوادتِهما جبن وخبز وخضار إن كان أحدُنا جائعا. ذهبتُ لأنادي على سلوان الذي كان نائما في غرفته. أعلمُ أنه يترقب الآن اشارةَ اطمئنانٍ من خلف الباب من خلال صوتي. لم يردْ عليّ فتركته.

بررت أمي زيارتها المفاجئة بوضع البصرة التعبان واللون الأسود

الكئيب الذي صبغ المدينة. تأملتُها. بان تعب العمر عليها هذه المرة. تنهضُ لتستحم. شعرت الفتاة ببعضِ الحَرَج لأن أمي لم تجر التعارف التقليدي بيننا كما لم توضح سبب وجودها بيننا. بادرتْ وقالت إن اسمها «أسَل». أبوها هو الذي اختار لها هذا الاسم برغم اعتراض الآخرين. قالت إنها تحبّ اسمها فهو يُشعرها بالتفرّد. اغتصبتْ مني ضحكةً وأنا استمعُ لكلماتها برغم تعبي. صحوتُ بعض الشيء وسألتُها عن معناه. تابعتْ قائلة إن أباها توفي قبل انتهاء الحرب العراقية الايرانية بأشهر معدودة وهي لم تتمّ الثلاث سنوات حينها، هي لا تتذكره لولا الصورَ التي احتفظت بها جدّتها له. لا أحد يجرؤ على الحديث عن أبيها في حضورها، تقول إن الصمتُ يعمّ متى جاءت على ذكرِه. بدا صوتها مرحا وخجلا بعض الشيء. قالت إنها تعلمُ أنها ورثت الكثيرَ عنه، عدا ملامح وجهه، وحسب ما تقول جدتها أنها تشبه أمها. ابتسمتُ لقولها ثم صمتنا. بقيتْ في حالة التأهب التي اتخذتها عندما نهضتْ أمي متوجهة إلى الحمّام. عمدتُ إلى تركها تحاول معالجة الموقف الغريب الذي وضعتْنا أمي فيه. فجأة وجدتني مستمتعةً بمشاهدة عرضِها. نهضتُ بتثاقل لأعدّ الشاي فقفزتْ تتبعني مسترسلةً بالحديث. كان صوتُها ضاحكا، لا يعكسُ السوادَ الذي كانت مُتلفّعةً به. خفضتْ صوتها وهي توضح لي سبب مغادرتِها البصرة. قالت إنها تتابع معاملة تقاعد زوجها الذي قُتِل في حادث قبل أشهر بعد تطّوعه في الجيش. «لم يدمْ الزواج سوى أشهر» وعزت ذلك إلى القسمة والنصيب. لديها أقارب في مدينة الصدر ولكنها لا تعرف لهم طريقا وهي تنوي الاتصال بهم في الغد، «مرة نهرب إليهم ومرة يهربون

إلينا في البصرة، هكذا كان الحال دائما». ضحكتْ رافعة صوتها. قالت إنها تتمنى أن تتمّ المعاملةَ بأسرع وقت لتعود. وتابعت بصوت حاد غير مستقر، أنْ لا معاملة إدارية تتم من دون أن يقصد المرء بغداد. تشتت فكري ودرتُ في المطبخ لا أعرف ما أبحث عنه.

تناولتُ إبريق الشاي الأكبر حجما من على الرف وألقمته ملعقتين من الشاي. كادت تلامسني وهي تتحرك في المطبخ فأفسحت لها المجال. شممت رائحة عطرها الحاد الغريب. وضعتْ الجبن والخضار التي لفظت أنفاسها في صحنٍ وحملَتْهُ، بينما حملتُ صينيةَ الشاي وتقدمتها. تبعتني مثل قطة ناعمة تجيد تحاشي ما يصادفها في طريقها وهي تتابع بصوت معتذر أنها تأمل ألا تُثْقِل علينا بالمبيت هنا.

لم يحملْني ظهري بعد أن تمكنّا من مدّ فراش في فسحة الصالون الصغير. أجّلتُ الدخول الى غرفة سلوان وتمددتُ على فراشي بسبب أوجاع لم أحتملها لولا الجرعة المضاعفة من المسكنات. بقي رنين صوتها الرفيع يتردّد طويلا في رأسي كضرب على نحاس حتى غفوت.

اتصل أسعد ليلا بعد يومين، وتحدث مع أمي طويلا. أمي التي لا تحب المجاملة ولا الهذْر يطيبُ لها الحديث معه أحيانا لساعات. سألته عن شؤونه وأخبرته بإيجاز عن أحوالها والطقس وأهوال الطريق بين البصرة وبغداد، لحسن الحظ تهيأ لها أن ترافق أسل في الطريق لتروّح كل منهما عن الأخرى. كانت أسل التي أخذت مكانها وسط كل ما نحن فيه تستمع بفضول لما يدور ويُقال بعينين كبيرتين مفتوحتين، بل خلتُها ستطير من الفرح لو طُلب منها أخذ الموبايل لكي تحيي أسعد وتسرد عليه قصتها. كان لها أهداب سود كثيفة ومعقوفة ترمش بشكل غير طبيعي كلما نطقت أو تحركت كأنها أهداب دمية. ناولتني أمي الموبايل مع إشارة إلى ذهابها للنوم وهي تحثّ أسل على النهوض ومغادرة المكان.

أخبرني أنه سيقضي الليلة مع مجموعة من الأصدقاء في فندق لإحياء ليلة رأس السنة. لن يستطيع أن يتصل بي عندما تدق الساعة. تفاجأتُ فقد فاتنا جميعا أنها ليلة رأس السنة حقا، وبسبب أوجاع ظهري كنت راغبة في النوم. ظللت صامتة.. أقسَمَ أنه غير مستمتع وأن

اصدقاءه سيغتصبون الضحكة منه، لا مزاج لديه ولكنها رغبة الجميع بالنسيان وهو لا يقوى أيضا على البقاء وحيدا في ليلة كهذه، برغم أنها لم تعد تعني له شيئا. بدت هذه الملاحظات معدة للتضامن مع حالتي البائسة في ليلة احتفالية كهذه. كان يتمنى أن يكون معنا «تخيلي لو أن سلوان هو من ينهمك هذا العام بإعداد برنامج الحفل الذي اعتدناه في احتفالات رأس السنة في الماضي. تخيليه يتجول بزي تنكري بين الأصدقاء والصديقات والعوائل كما كنا نفعل، أن يختار بنفسه الفعاليات والموسيقى والهدايا والطعام وثيمة الأزياء التنكرية والزينة» توقف فجأة وسادت فترة صمت قبل أن يسألني «ما الذي تفعلينه؟». «أسمع زئير مولدات الجيران الآن، بعض الإطلاقات، البيت بارد وخزين النفط قد نفد، أظن أن أمي نامت الآن هي وضيفتها، ونحن قاطعنا التلفزيون كما تعلم».

2008

مطلع 2008

جـاء الحرّ مبكـراً. أغسـل وجهي بالمـاء وأبلل أطرافـي. لم أعرف أسـل جيدا، وبدت أمي كأنها تعمّدتْ عرضَها علينا لأسـبوع وغادرتنا. اتصلت جارتها لتعجّلها في العودة. أخبرتْها أن الوضع سيء في البصرة وحال زوجها ليس على ما يرام. أما أسـل فقد قررتْ العودة معها لعدم تمكنهـا من الوصول إلى أقاربها بسـبب محاصرة الجيش للمنطقة التي يقطنونها في منطقة الصدر، عدا عن تعطيل الدوائر الحكومية.

ألّـف وأدور فـي البيت. أفكر؛ هكـذا هي دائمـا، لا يمكن لأحد أن يسبر غورها ويعلم بنواياها، نادرا ما تتصرّف من غير تخطيط مسبق، إن كان عن حكمة أو بدافع مزاج. هل فكرتْ بي؟ أنا أعرَفُ بها من نفسِـها برغـم إنكارها ذلك. لابد أنها فكرّتْ بسـلوان عندما جاءتْ بهذه الفتاة مـن البصـرة إلى هنا. كان يمكـن متابعة معاملة راتـب زوجها من مكان آخـر ومن طـرف آخر يمدّ لهـا يد المسـاعدة. تباً لأمي ومـا تورّطني به دائمـا. لـو تأتي لترى الآن ما فعلتْه بي وبإبني. أخشـى أن أقول لها ذلك مخافة أن تتهمني بالشـك المزمن بها، وأنني اتهمها دوما وأتخيّل أشياء

لا يمكـن أن تكـون قد خطّطتْ لها، وأن الموضـوع برمّته اعتيادي. هل يمكن أن أكون واهمةً إلى هذا الحد؟

اختـلّ ايقـاع يومـه ومعدته ما عـادت تتقبّـل لا الأكل ولا الكحول. تصدح ضربات بيانو لشـوبان مجـددا حال انطفائها عند منتصف الليل. تلحقهـا مـواء مجموعـة مـن القطط أبـت أن تغـادر مكانها، تـارة فوق السـطح، تارة خلف البيت في الحديقة، وتارة أخرى تحت السـيارة في المرآب. أكره منذ صغري متابعتها لبعضها البعض، أكره مواءها الغريب الصاخب الشرير في شباط، ذلك المواء كان يتضخم في أذني ويرعبني ليلا. أخشـى خروجي ولا أدري ما الذي يمكن فعله وأعلم أن لا شـيء سيفزعها حتى لو حاولت طردها.

أجـد لمسـاته في الصباح، فقـد رتّبَ المطبخ ودخل لينـام. ما الذي يفكّـر به؟ يتحاشـاني. يرد علـيّ بإجابات مختصرة. كم يشـبه أباه! كان منكبّا طوال الوقت على دواوين الشعر. لا يقول كلمة.

تحركّـتْ تعابيـر وجهه يوما عندمـا رنّ الموبايـل، وكانت أمي على الجهـة الأخرى. كنا نتناول طعامنا في المطبـخ. كنت أكلّمُها باقتضاب وأنا أنظرُ اليه. وجهه أصفر. أخشـى أن يسـمع شيئا لا يصحّ أن يسمعه. كانت عيناه مسمرّتين في وجهي. حالما انتهت المكالمة سألني مباشرة بلهجة جادّة «هل ستأتي أسل؟». بلعتُ ريقي وترددتُ قبل أن أقول له: «لا أعلم، لا أعتقد ذلك».

نومي كان مزعجا. كابوسٌ مخيف استلمني أولَ الليل، فنهضتُ مبلّلة تماما بعَرَقي وتوجهتُ إلى المطبخ أحلمُ ببئرٍ مجمّد أغطس فيه. في طريقي لم أجد آثارا لبقائه صاحيا فاطمأننت. حلمتُ أن وسط البيت حفرة كبيرة كانوا يعدّونها وعليّ أن أتهيأ للنزول فيها. فمي كان ناشفا. لا ماء بارد في المطبخ. كان ماء الشرب الذي اشترياه مازال في مكانه على الأرض من الأمس. أدخله ابن الجيران لي ولِتعبي تركتُ مهمة تفريغه من عبوته البلاستيكية الثقيلة للغد. نظرتُ من حولي بجزع. اختنقت بنوبة بكاء وأنا أشرب الماء فاترا مجّاً من الحنفية مع حبتين للصداع.

غسلت وجهي وفكرتُ بأسعد. الساعة الرابعة فجرا. بلّلتُ منشفةً وجلست بعد أن رفعت قدميّ إلى حافة الطاولة وغطيتهما بالمنشفة. أشعلتُ سيجارتي. تكرّر رنين الموبايل في الجهة الأخرى. كدتُ أيأس وأقفل الهاتف. تخيلتُ شقتَّه فارغة تماما ورنين الموبايل يتصادى مزعجا في أرجائها. جاءني صوته صاحيا مُرحِّبا فشعرتُ بارتياح. أنصتُّ بينما يُشعِل سيجارته. يقول مازال يستغرب رنّة الهاتف. يبقى

يدور برأسه يمينا ويسارا ليفهم مصدر هذا الصوت. و«لا لا»، إن توقيت مكالمتي لم يفاجئه. لا ينقصه إلا وجودي. قال إنه أحضَر صينية وضع فيها إبريق شاي وكوبا لتنادمه لساعات، كما راح يطبخ الرز أيضا فقط من أجل أن يستحضر الأجواء التي يشتاق إليها. يعلم أن في ذلك مازوخية ولكنها تحرّك حواسه النائمة. إنه يشعر بعزلة مضنية، وقام اليوم برمي ملابسه الداخلية لأنه نسي غسلها، وينوي شراء... لم يكن هذا ما أودّ سماعه، اخترتُ أن أتركَ الوقتَ مفتوحا واختارَ هو أن يبدأ. اعتدلت في جلستي ومدّدت ساقيّ. شعرتُ بقساوة الوضع الذي يعيشه. لا أستطيع أن أعدَه بشيء، لكن وبسبب حيرتي خطرتْ فكرة السفر في بالي، لِمَ لا؟ لنخففّ عليه، فكرة أن أهرب بسلوان إليه ونبتلي نحن الثلاثة سوية قد طرأت حقيقة ببالي في اليومين الأخيرين. حالما سمعني أتحدث عن ذلك حتى قال إنه لطالما تحايل عليّ ليتهرّب من خوفه أمام مسؤولياته. لم أفهم. انتظرته لثوان قبل أن يوضح. قال إنه مُحيط بما من شأنه أن يوقظ عواطفي تجاهه. يعلم أني سأترك إخفاقاته وقصوره ويأسه وأنشغل بمحاولة انقاذه. آثرتُ أن أضحك كجواب. كان صوته يشي باشتياقه. لم يحدث من قبل أن تبادل معي حديثا بصيغة الاعترافات هذه. أكمل إنه يريد اليوم أن يفتح شهيتي للحياة بعض الشيء. استمريت بالضحك. «هل رأيتِ، ألم أقل لكِ إن يأسي منقذي أحيانا؟» ولكنه سرعان ما عاد إلى موضوع زيارتي له مع سلوان معقبا؛ «ولكني لن أفيده، أخاف أن أفشل في... » فقاطعته. رجوته ألا نبدأ من جديد ولينس الأمر فلدي ما أود التحدث فيه معه غير ذلك. لكنه أصرّ على الوقوف عند رفضي القاطع، المجنون والغريب كما قال

لفكرة ترك بغداد. سألني شبه متهكم إن كنتُ أدرّب نفسي على تجاوز المحن! أم أنه إيماني بهذه المدينة التي يمكن أن تغيّر من نفسها وتستعيد صورتها التي كانت!. لم أفهم ما يريد الوصول إليه معي. قلتُ اختصارا إن ما لديّ أهمّ. قال «إنه سلوان إذاً». «أجل»، حدّثته عن كل ما مرّ أو خطر بذهني بشأن وضعه وأفكاري بشأن أسل. كنت بأمسّ الحاجة لأن يسمعني. رأى أن في تفكيري ضرباً من التمنّي، وهو أنْ يسير كل شيء على ما يرام في حياتنا ويرجع سلوان إلينا إنسانا متوازنا وطبيعيا. انه يتمنى ذلك، ولكنه لا يريد أن يوهم نفسه بشأن وضع سلوان النفسي المعقد، برغم أن الأمر سيعمّق من إدانته لنفسه لتخلّيه عنه وعني. كان ذلك شعوره عندما أعاد سلوان إليّ في المرة الأولى بعد مغادرتهما إلى عمان. صَعُبَ عليه تولي أمر العناية به. لم تمض إلا فترة قصيرة اضطر بعدها إلى إرساله، معتذرا، مع أحد المعارف إلى بغداد. أجبته أنه كان قرارنا معا، واتفقنا عليه. كنت قد أدركت ببساطة أن الخبرة نقصته للإعتناء بسلوان، هذا كل ما في الأمر. «كان سلبيا خلال تلك السفرة، مدللا، حساسا، يبكي طوال الفترة طالباً العودة إليكِ، لولا تلك العائلة التي أنقذتني من حيرتي معه». «ولكنه لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة يا أسعد، كان طفلا، لم يكن هيّنا ما دفعناه إلى مواجهته». «دفاعكِ المستمر عنه يقف حاجزا بيني وبينه، وعموما ارتحت لما انتهتْ إليه المحاولة». و«أنا أيضا» قلتُ له في الحال.

المسألة التي أخفيها ليست فراق ابني. أتساءل كيف يتمكن الناس من حلّ وثاقهم وترك المكان ولا شيء بانتظارهم غير المجهول. مازلت أنظر باستغراب إلى هؤلاء الذين غادروا منذ زمن، وكأن لديهم

جينات أخرى خاصة تُمكّنهم من ذلك. أشعر بهم مختلفين عنا، ليسوا مثلنا، أغراب عني وإن كنت أعرف الكثيرين منهم عن قرب.

«سلوان يتحسّن، ولذا أجد وضعه المربك مؤخرا محيرًا لي، بعد أن لمستُ تأثيرا فعالاً للدواء عليه. كانت مرحلة عصيبة تلك التي مررنا بها ومرّ بها، لكنه صار ينام ويأكل ويسأل ويتحرك في البيت بفضول واهتمام، هل تدري أنه انقطع عن شرب الكحول منذ فترة، أخذت معدته ترفضه، أو أن رأسه هو الذي يرفضه، أنا خائفة، لا أدري ما سبب تراجع صحته الآن، أعتقد أنه الدواء الذي يتناوله». قال «كل ما يحدث من تحسّن هو بجهدكِ». «صار يتابع ما يدور عبر الإنترنيت وينقل لي ما يدور في العالم، مهووس بالموسيقى والقراءة، لو تدري بالأمس ارتدى قميص أبي الشَعري الأبيض وحمّالاته واختار أيضا مسبحته البيضاء التي كان يختارها للزينة، فبات بنحوله، وبعد أن شذّب لحيته وسمح لي بتقصير شعره قليلا، يشبه كاتباً روسياً». «إنه نسخة منكِ، لون شعركِ وبشرتكِ الحنطية وأسراركِ». «أية أسرار؟» أقولها بضحكة المفاجأة التي تملكتني. «أحيانا أشعر أننا نقوم بأدوارٍ ليست لنا، لغيرنا، لم نكن محظوظين!»، «إنه يختار لنا بالمناسبة كل فترة اسما جديدا، كنتُ منيرة، أوفيليا قبلها، أنا الآن سونيا، وأظنكَ مازلتَ مدحت حتى اللحظة»، وضحكتُ. لا أسمع منه تعليقا. يسود صمت. كدت أغيّر الموضوع بعد أن خشيت انزعاجه في دقيقة صمتِه من تعليقي الأخير بشأن شخصية مدحت، قبل أن يسألني إن كنتُ قد سمعتُ بخبر وفاة كاتبنا التكرلي، «لا، لم أسمع شيئا»، قلتُ له وأنا أذكر توقيعه على روايته التي أعارها صديق لنا. أذكر وجه الرجل وأناقته في إحدى زياراته

الأخيرة لبغداد. «خسارة كبيرة!». «كان الجو باردا ماطرا ونحن نتوجه إلى تشييعه في عمّان، لم أجد معنى في كل ما أقوم به، شعرتُ حينها برغبة في ترك كل شيء والعودة إليكما، من حسن الحظ إني التقيت ذلك الصديق الذي قدم من براغ ولازمني. هو أيضا من جماعة القبعات من ثنائيي الجنسية، نقضي الوقت نسترجع الماضي وخسائرنا».

كرّر أن لقاءه أجمل ما صادف مذ وصل عمان. أخبره أسعد عن القبو الذي عمل فيه لسنوات بعد حرمانه من وظيفة التدريس فأخبره الصديق عن رواية قرأها لكاتب تشيكي رائع لم تُنشَر إلا بعد سنوات بسبب الرقابة في ظل نظام تشيكوسلوفاكيا الشيوعية حيث الكتاب كان ملعونا. تحمل الرواية عنوانا جميلا أيضا، «ضجيج الوحدة العالي» حسب ما يذكر، أسَرّه العنوان حقا، وهي تحكي عن رجل معاق اجتماعيا، كانت حياته بأكملها تدور ولمدة خمسة عشر عاما في قبو مظلم خانق، الذي هو مكان عمله أيضا. في هذا القبو المظلم الصغير يتمّ جمع الأوراق الفائضة والكتب وخاصة الممنوع منها والاعلانات وفضلات أوراق الجزّارين ومحلات الزهور والمصانع والمكتبات ومن ثم يجري كبسها لتنقل إلى معمل الورق. كان دور هذا الرجل هو كبس تلك الكتب والأوراق يوميا وصفّها في بالات ونقلها بواسطة رافعة الى أعلى ليتم نقلها إلى خارج المدينة لإعادة تصنيعها. لم يكن لهذا الرجل حياة خارج عالم الكتب التي كان يصعب عليه إتلافها فيجد نفسه يعود بعشراتٍ منها يوميا إلى بيته الذي امتلأ حتى السقف بها. كانت الكلمات مثل عظام دجاجة صغيرة ترفة مشوية يسيل دهنها وعصيرها من بين أصابعه، يمصمصها يقضمها يتلذذ بنخاعها يطحنها

ويبلعها ولا يجد ما يُرمى منها. امتلأ البيت بكتب الفن والأدب والفلسفة وملصقات لعشرات اللوحات الفنية لكبار الرسامين. قال إنه وصديقه تذكرا الجاحظ أيضا الذي قتلته الكتب عندما انهارت عليه ودفنته. «كم تتشارك هاتان الشخصيتان في خصالهما! ولكن ألا يشبهني هذا البطل الغبي الحكيم، ألا يشبه ابني، صدقيني بقيتْ التفاصيل محفورة برأسي، لم تفارق القصة ذهني، ظلت أحداثها تدور ببالي، لا أعلم إن كانت كتب الأدب والفن والموسيقى تزيد من بلاهتنا في الحياة لتعيقنا وتزيد من غربتنا. أشعر أني أورثتُ إبني هذه الإعاقة التي هو عليها. انظري لي إني لا أصلح لشيء، نعم أورثته سذاجتي، فما الفرق بينه وبين هذا الرجل الذي لم يجد المجتمع القاسي مكانا مناسبا له سوى القبو، بسبب خروجه عن السرب؟ ما الفرق بين ابني الذي لم يشعر بالأمان إلا في قبوه وبيته، وقد انتحر أخيرا بعد أن طردوه من العمل؟». «كفى، ما الذي تقوله، هل جننت؟»، أقاطعه. لم أتمالك نفسي، اجتاح صدري ألم حاد وانحبس صوتي. اعتذرَ ورجاني أن أحتمله وأن أتفهّم ما هو فيه. لديه الكثير الذي يوسع صدره بالألم. توسّل ألا أغلق الخط الآن فيسودّ يومه. لعن يومه وأفكاره وعزلته. «ولكن ألا تظن أنه بحاجة إلى امرأة الآن، إن مشاعره تتحرك حاليا في هذا الاتجاه، أعني أن نكسته هي ربما بسبب مواجهته لهذا الأمر الطارئ، حضور الفتاة؟». قاطعني ورجاني أن أكفّ عن الحلم وألاّ أقدم على خطوة تعمل على هدم ما بنيته حتى اللحظة. «مهلكِ وبلا عجلة، هل تنوين تزويجه؟». ومع أني فزعتُ من السؤال، استهجنتُ في الوقت نفسه تصوره اليائس لحالة سلوان. «ولِمَ لا؟ إني أصحو بسبب الأمل في

داخلي، لستُ يائسة مثلكَ ولستَ قريبا لتتحسّس ما استجد. لقد مرّ ما يقارب العامين الآن. ألا تفكر مثلي في أن الغد سيأتي بجديد، بشيء ما؟». «بخصوص سلوان؟». «أجل، فقط بما يخصه. لا أفكر الآن بما يخص أحداً غيره، لا أنا ولا أنتَ. نحن كبرنا». ترددتُ قبل أن أكمل «وإن لم تكن ترى في علاقتنا بشكلها الحالي محتوى...أجدها قوية». «كيف بربكِ، شفافيتكِ لا تعينني، حاولي أن تشرحي لي لأفهمكِ ولو لمرة واحدة، انفتحي قليلا كي أفهم؟». تلبكتُ وحوصرتُ بمشاعري وكدتُ أغلق الحوار. ولكني لم أشأ للمكالمة أن تنتهي. تحركت من مكاني وتناولتُ القنينة من أعلى الرف وملأتُ كأسا حريصة ألا أصدر صوتا يصل أذنيه. «لا أدري ربما هو مكانُكَ في داخلي، صورتُكَ الأولى، ما عشناه معا، هذا هو رصيدي في حياتي الذي أشبعني منذ السنة الأولى، ربما من اللقاء الأول، لم أشعر بحاجة لشيء أكبر من ذلك. ربما هو أنتَ ببساطة، بدوركَ في حياتي من جهة ومن جهة أخرى كنتُ أعرف حجم هذا الدور والوضع وذلك ما جعلني أقبل مكتفية تماما بعد مجيء سلوان، لولا أن حظنا مع هذا البلد حرمنا من تلك المتعة فاعترضتنا كل تلك المعوقات السقيمة». «أنتِ تُشعرينني بأنني زوج وأب مفروغ من أمر عطَلِه». «لا، ربما أنا هي التي أدارتْ ظهرها للحياة وقد بدت صعبة التحقق بالصورة التي تمنيتُها». «ولكن منذ متى، أنتِ لا تنظرين إلى الواقع إلا من خلاله؟»، يتعجّل جوابي. «أظنه حصل في وقت مبكر جدا، أبكر بكثير»، قلتُ له، لم أكن قد فكرتُ بذلك من قبل وكدت أسأله عن سبب صمته هو كل هذه السنين، ولكنه تابع «أنتِ التي زرعتِ الخوف فيّ واليأس من نفسي»، «هل تُلقي اللوم

علـي؟». «أجـل، أنـتِ تفردين لـلأب والأم دورا أكبر مما يستحقان برأيـي، الصـورة التي في بالك أرعبتني، سـواء ما يخـص والديكِ أو ما يخصنـا، أنـتِ تخيفينني، صدقيني نحن لسـنا جبابـرة، لا أدري من أين جئتِ بذلك، حالة الكمال التي تنشـدينها مستحيلة، إننا بشـر، ما نقدر عليـه محدود جدا قياسـا بما تطمحيـن إليه». صوته خال من السـخرية هذه المرة. «ولكن هل تعتقدين إن سـلوان ينتمي إلى بلده كما ننتمي له نحن»، يسـأل. «هل تلمّح إلى خلوه من تلك المشـاعر، ما علاقة ذلك، لمَ تظن ذلك؟». «لا أدري، أتساءل وأنا أعود إلى الوراء إلى الصور التي انطبعـت ببال جيل بأكمله عن هـذا البلد في عقوده الأخيرة. جيل لم ير الصـور التي رأيناها ولم يعش الحياة التي عشـناها. جيل لم يلمس غير التشـتت والزيـف، جيل رأى خرابا ومدينة كانـت بأبهى صورة تريّفت، كيـف يفكـر هؤلاء الشـباب في ظنكِ ولمـن ينتمون؟ هل لمسـتِ يوماً حماسة لدى سـلوان أزاء منتخب كرة القدم الوطني على سبيل المثال، هـل يعرف اللاعـب يونس محمـود؟». «ولكنه لا يميل إلـى كرة القدم ونحـن نعرف ذلـك جيدا، أنـتَ أحطتَه بكتبكَ وموسـيقاكَ ورسـاميك والأفـكار الكبيرة وأصدقائك ما جعله ينظر بتعال إلى كرة القدم ويبتعد عمـا تذكر، لا يعرف لاعبينا ولا يطيق سـماع أغنية عراقية، أليسـت هي مثاليتـك التـي فرضتْها علينا!»، «لم تكن هنـاك فرصة، الأحداث كانت تهـدر، تدمدم، مصممة علـى إيذائنا... السـتينات حوّلـت أعباءها إلى السبعينات فإلى.. إلى... ونحن كأننا نتدحرج معها من دون قدرة على التحكم في شيء»، «دعنا بربك من هذا الآن، ليس عندي ما هو أهم من صحته، دعنا أرجوك، أمي تقول إن الحياة نعيشها أولا وأخيرا، أنا أقول

إن الحيـاة لتنصفنـا أولا ولتردّ لي في ابني جزءا ممـا أعطيته». «أمكِ لا تقل عنك قوة وجَلَداً ولكن لو توفر لها ظرف حياة آخر كنتِ رأيت كيف كانت ستستمتع بها»، ينكسـر صوته وهو يسأل مازحا بأنفاسه العطوف «كيف لم تتعلمي منها؟». «وهل اشـتكيتُ لكَ، ثم إني لا أملك أنانيتها ولا أريدهـا». «لـو تدريـن كم تمنيتُ لـو كنت قد وفرتُ لـكِ وله حياة أفضل». «أرجوك، دعكَ...». «أعلم أعلم». نهدأ ونسكت لفترة قبل أن يتابع بصوت اختلفتْ رنّته؛ «ليس لدي سـوى حلّين الآن، إما العودة أو المغـادرة بعيدا، إلى المنافي، ما قولكِ، لا يمكن لي الاسـتمرار بالبقاء هنـا؟». «هل تقدمتَ بالطلـب؟». «ليس بعد». صوتـه الجاد يجرحني. دلقـت فـي جوفي مـا تبقى بصمـت وقلت بحرقة؛ «لسـتُ مـع الحلّين وأنـتَ تعلـم ذلـك، لا أريدك أن تعـود خوفا منـي على حياتـك، قائمة اغتيالات الأسـاتذة تطول، ولكني أريدكَ قريبا على الأقل إن احتجتكَ، فكـرة الابتعـاد لا أفهمها». «ماذا لـو جئتِ أنتِ وتركته لفتـرة مع أمكِ، كلانـا بحاجة لذلك؟». «سـلوان مازال بحاجة إليّ». يسـكتْ ونشـعل سـيجارتينا. لم يعقّب أو يزيد. طلبتُ منه أن يرسـل المزيد من الحبوب المنومـة إن صادف صديقا قادما من عمّـان. يظل صوت الخط مفتوحا بـلا حركـة ولا نفس لفترة طويلة. ينعكس شـعاع الشـمس على وجهي عبر زجاج النافذة. يشكرني. نتمنى لبعض أن نصبح على خير.

ربيع 2008

باشرتني: «بالكاد تنفسنا، كنا محبوسين، لا ماء ولا كهرباء ولكننا والحمد لله، نتمنى الفرج الآن بعد «صولة الفرسان»». كنت قد اتصلتُ بأمي لأخبرها بما فكرتُ فيه. لم أجد أخيرا غيرها منقذا لي في حيرتي. طلبتُ منها أن تأتي ومعها أسل من البصرة فرفضتْ. لم أفهم فجأة موقفها. أليست هي من زرعَ الفكرةَ في رأسي. أنكرتْ ذلك. ألم ترجع كل مشاكل الرجال والنساء إلى الحرمان والفصل. قالت إنها برغم ذلك تجهل وضع الفتاة وتفكيرها وبالكاد تعرف أهلها، سيصعب اقناعها بالمجيء بعد الحالة السيئة التي مرّوا بها في البصرة. انفجرتُ غاضبة مشكّكة في عدم قدرتها على ذلك إن أرادتْ. أقسمتُ لها إن لم تفعل فسأقوم بنفسي بإحضارها إليه، بل لسوف آتي أنا وسلوان إلى البصرة. وعدَتني أن تفكر وتتصل. أمهلتها يومين فلم تتصل خلالهما فاتصلتُ بها. تعللتْ ثانية بالوضع وطريق السفر المغلق والأحداث والزوج التعبان فقاطعتها لأفرّغ ما بي من سخط في الهاتف.

بعد جولة قاربت الساعة والنصف بين المناطق المغلقة والشوارع

المسدودة اعتذر سائق التاكسي وتركنا نقطع المسافة الباقية وصولا إلى عيادة الدكتور مشيا في شارع 14 رمضان. سافر حسام واضطررت لمرافقة سلوان إلى طبيب صديق له لعله يفهم حالته التي استجدت. جاهدتُ في سبيل اقناعه. كان يتقدمني بضع خطوات ونحن نسير. يتلفّت كعادته مرعوباً مما حوله في محاولة للعثور على اسم عيادة الطبيب بين اليافطات المركّب بعضها فوق بعضها. تقدّم منه جنديان وطلبا منه ابراز أوراقه. استغرق الأمر دقائق ليعثر على ما طلبوه من المستمسكات التي صففتُها له في محفظته. لحقتُ خلالها لمساعدته في اظهارها فدفعني أحدهم جانبا وطلب عدم التدخّل، أخبرته لاهثة أني أمه وأخرجتُ خلالها ما في حقيبتي من إثباتات، هذه بطاقة السكن وهذه بطاقة الحصة التموينية والهوية الأصلية وهذه.. لكن الجنديين صارا خمسة والدبابة التي بركت على مسافة قد تحرّكت مع اسطوانتها تجاهنا والذي أمسك البطاقة المصوّرة لسلوان كرمشها بحركة اتهام بالكف العسكرية التي كان يرتديها مدعيا أنها مزورة. قال الأخير إنهم يعرفونه، كانوا يشكّون طوال الوقت في هويته. أخذوا يضيّقون من دائرة تطويقهم له. سبقتُ الواقع في رؤيتي لمشهد انهيار سلوان وفقداني له. كثر عددهم من حوله، تعالت أصواتهم واقتربت بنادقهم وصرتُ خارج الحلقة التي أقفلوها عليه من دوني، غاب سلوان عن نظري وما من أحد لينجدنا.

صحوتُ ممددة بحضن سلوان على الرصيف. في يده قنينة ماء قريبا من وجهي، إلى جانبه حقيبتي وفردة «شحاطتي» اليمنى، شَعري ووجهي مبللان، الجنود فوق رأسي وهم يتحدثون فيما بينهم، وصوت سيارة الإسعاف وهو يقترب.

مرَّ يومان وأنا راقدة في السرير، شبه معوقة بسبب ظهري. تعبة، أستيقظ بفم ناشف وجسدٍ متيبس منهك وصداع شديد. سمعتُ سلوان يتحدث مع أمي. جاءني بالموبايل إلى الغرفة. سألتني عن صحتي. تحدثتْ مع أسل ويبدو أنها تخطط للسفر ثانية لبغداد من أجل متابعة معاملة تقاعد زوجها الذي عُدَّ شهيدا الآن. كانت حدود البصرة ماتزال مغلقة مع المحافظات والتجوال ممنوع بعد العمليات العسكرية التي نُفِذّتْ. وعدتني أن ترافقها حالما يجسّ جارهم سائق التاكسي النبض ويقدّر مدى إمكانية السفر، ولكنها عادت لتقول لي إنها لن تتدخل أكثر من ذلك.

نادى عليّ سلوان من عند الباب الرئيسي الداخلي. كنت ممددة على التخت والشمس القوية ظهرا في الخارج تجعل الداخل شديد الظلمة. ولكن نبرة صوته كانت مختلفة. تصورتُ انها إحدى محاولاته في الأيام الأخيرة للترفيه عني، الإلحاح في صوته جعلني أتحامل وأنهض متلمّسة دربي. درتُ معه أتبعه إلى حديقة البيت الخلفية غير قادرة على معرفة ما يريد. الحر الذي لفحني والحشائش والأشواك التي جرحّت ساقاي جعلتني استعجله ليخبرني. توقف ليشير بيده إلى القطط الصغيرة المرمية على خرقة ملطّخة بدم الولادة في زاوية من الجدار بين الكراكيب خلف الأغصان المتيبسة والأعشاب التي علت. كان منظرها مؤثرا، صغيرة الحجم، تنام مغمضة العينين بلا حراك مكدّسة فوق بعضها البعض، تركتهم أمهم وعلينا الاعتناء بهم إن لم تظهر خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة. صحتُ به: لا.. لا يمكن! أنا لا أحب القطط وهي تثير حساسيتي وحساسيته. انحنى ليتأكد من

عددهـا. قال إنـه لن يتركها تمـوت بالتأكيد. نحتاج حليبـا وصندوقا أو علبـة كبيرة مـن الكارتون وخرقـة لنقلهـا. احترتُ حقا فـي أمري. هل ينقصنا هذا يا سـلوان؟ نظرت من حولي، إليه وإلى القطط، لم أسـتطع مقاومة الاسـتغاثة التي كانت تنطلق من أجساد الصغار الهامدة. كما أن تعابير وجهه وانفعالاته وانصرافه الكلي أنساني حيرتي، فانضممت إليه في بحثه عن حل.

تأخرتُ في النهوض صباحا. فزتُ على صوت أمي ضاحكا تتردد من خلفه ضحكة قصيرة صادرة عن أسل. كان رأسي ثقيلا بتأثير المنوّم وظهري يجعل حركتي كالروبوت. دخلتُ الحمّام وغسلتُ وجهي. نظرت إلى الهالات حول عيني المتورمتين أمام المرآة. أخذت أمشّط شَعري الذي عاد يزعجني بطوله وخفته، بلّلته وسرّحته، جمعته وربطته إلى الخلف، عدت وحررته ثم رفعته من الجانبين برضا أكثر عن شكلي وانسحبت.

كان الثلاثة مجتمعين حول مائدة الطعام لتناول الفطور. بدتْ بمزاج رائق. قاطعتُها بدخولي وهي تروي له كالعادة شيئا عن أبيها. رمقتني بنظرة استقبال مشجعة. أمالت رأسها مبتسمة مشيرة الى «ثرموس» الشاي الذي جاءت به هدية لي من البصرة؛ لأنها تحب أن يحتفظ الشاي بحرارته طويلا. وجدتُ ألوان وروده المذهّبة فاقعة ولكني آثرت السكوت. كان سلوان ينظر في صحنه. أسلْ ارتدتْ ثوبا صيفيا ملوّنا والربطة منزاحة من على رأسها إلى رقبتها. نهضتْ بخفّة لتصبّ الشاي لي واستدارتْ أمي متناولة كيس الخبز جانبا لتمرّر لي قطعة

وهـي تتابع مع سـلوان «كان شـابا قويا عندما ماتت أمـه، تزوج أبوه في الحال من امرأة ظلمته وقسـت عليه فقرّر أن ينتقم منها، أضرمَ النار في أكواخ الطين والقصب حيث يسكنون وفرّ. طاردوه للإمساكِ به ولكنهم عجزوا. تمكّن من الإمسـاك بذيل حصان أبيه الذي جَفلَ من النار وهي تشبّ في المكان منطلقا به. الجميع تحدثت عن طريقة فراره تلك وقوة قبضته وتشـبّثه بذيل الحصان وهو يسـابق الريح، جيـش بحاله لم يكن ليسـتطيع اللحاق به». ضحكتْ وهي تترحّم على أبيها وتقسـم لسلوان أنها عاشت زمن خرافات مع أبيها وهو يروي لها حكايات تشبه قصصا من الخيال.

شـربتُ الشاي مع جبنة وخيار ملفوفة بقطعة خبز. لم أسأل ولم أشأ الاعتـراض من جديد، اعتراضي على خـروج أمي وتبضّعها صباحا لن يجـدي نفعا ولـن أحصل بالمقابل على شـيء غير سـخريتها مني ومن الحياة إن أصابها مكروه. الوضع الأمني مخيف لكنها لا تأبه لما أقوله، «الحيـاة مثل ثنيكِ للمنشـفة التي بين يديكِ»، تقـول لي، «طوية طويتان ثـلاث وينتهـي الأمـر». يظهـر سـنّها الأمامـي المذهب وهـي تضحك وتحثّني بنظرتها على الضحك. كانت الهدية التي جاءت بها لسلوان من البصرة إلى جانبه. عباءة من الصوف الخفيف الشـفّاف مطرّزة الحواف باللـون الذهبـي، قالت إنها هي التـي أصرت على أن يأتـي بها ليجرّبها أمامهمـا وأكدّت لي أنها أعجبته كثيرا. نظرتُه الهادئة المنكسـرة ترسـل لي تأكيدا سـريعا. تأملتني أسـلْ بنظرة طويلة كأنها تراني للمرة الأولى، قالـت إن مـن يراني لن يصدّق أني أم سـلوان. نظرتُ إلى سـلوان فافترّ فمه عن ابتسامة سرعان ما أخفاها. تحدثتْ عن عزمها تجديد المحاولة

بالخـروج فـي الصبـاح الباكر غـدا فلربما تحسّـن الوضـع ورُفع حظر التجـوال بعد يومين من التفجيـرات واعتصام الناس في بيوتهم. طلبتُ منها أن تتسـلّحَ بشيء من الصبر، أيدتني أمي بضرورة الانتظار. تناوشنا أحاديث خفيفة، نهض بعدها سـلوان متوجها إلـى غرفته ونهضت أمي لتعدّ لي قهوة طازجة أكدت لي أنها ممتازة.

مرّ أكثر من أسبوع على وصولهما. كان سلوان يتناول ثلاث وجبات وإن كانـت قليلـة. رفَض استشـارة طبيب ثانية بشـأن معدته. أمي كانتْ تطرق بابه وهي تحمل له شاي الأعشاب أو اللبن الخاثر عصرا، تتبادل معـه بضـع كلمات وتعود. يقلقني وجهه إن تمعنتُ فيـه، لا يعكس إلا الحـزن والشـرود، بدا لـي مهموما ولكـن من دون ضجة. كنـت أرقبه، صامتـا وهو يبحـث في كتبه، وهو يشـاركنا تناول الوجبات ورأسـه في الصحـن أمامه أو فـي وجه أمي أو وجهـي. حركته غير مسـتقرة تماما، كما لو أنه سيستأذن ويغادر بعد دقيقة ليعودَ إلى غرفته أو ليتفقد هاملت القـط الوحيـد الذي عـاش، والأم التي عادت واسـتقرت آمنة كما يبدو في مأواها خلف البيت معه. كنت أمرّ به في غرفته لعله يسـرّ إليّ بشـيء ولكنه كان مصرّا على إبقائي على مسافةٍ منه.

وأنـا مضطجعـة في سـريري رحت أراجع هـذه الـ «أسـل». كانت تتخاطـف لتلبـي احتياجات شـتى مـن حولها مـن دون أن تسـأل، كما كانـت تبادر لكسـر الصمت بصوتها الرفيع لتتحـدث كيفما اتفق. لم تر كتبـا حقيقية فـي حياتها، ولكنها حلمتْ بها. كانـت منبهرة بالمكتبة في غرفة سـلوان. فغرت فاها دهشة مسـتغربة من الرفوف الملأى بالكتب من الأسـفل الى الأعلى. أوشـكت أن تقفز فرحا بالمنظر. قالت إنها لم

تشاهدها في مكان من قبل غير الأفلام. افتقدت سعادتي القديمة في قراءة رواية جديدة. الكتاب لم يعد يجذبني اطلاقا. قالت إن أبيها هو الذي كان يحبّ ويقرأ الأدب وتمنى أن تكون هي شاعرة، حسب ما أخبرتها جدتها. إنها لا تملك كتابا واحدا في البيت غير منهج الكتب المدرسية، وبما يخصّ الأدب فهي لم تقرأ غير بضعة كتب في معهد المعلمات. حلمُها أن تحقق أمنية أبيها، وتصير شاعرة، تخجل من قول ذلك علَناً وهي تحفظ الكثير من القصائد. رحت أنظر لسلوان لأقرأ ردود فعله أزاء ما تقوله أسل. كانت تموت في القصائد التي لحَّنها كاظم الساهر، تغني جملة من قصيدة وتضحك بصوتها الحاد المنفعل «لو يعلم أبي في قبره كيف هي البصرة اليوم، لا غناء ولا شِعر، الأهالي كلهم يخافون على بناتهم من الخطف والقتل، لا يُسمع لهن صوت، غطّوهن وأخفوهن في بيوتهن».

اختلطت الأعراض عندي. مشوشة أشعر بقواي مهدودة، زاد ألم ظهري وتشنجت عضلات جسمي بأكمله. لازمت الفراش بطلب من أمي التي تولّت أمور البيت بدلا عني. أذكر الآن من طفولتي عينيها الآمرتين. من السخرية أن أفكر أن صحتي ساءت شيئا فشيئا بإيعاز أو تخطيط منها كي أبتعد عن سلوان.

تبذل جهدها لتطمئنني بإدارتها للبيت. كنت سرعان ما أعود للفراش ما إن أنهض وأغادره. خلا من التراب وصار الطابق العلوي مأهولا بالحركة التي أسمعها على سقف غرفتي، فضلا عن دخول وخروج الجيران. تدور أسل في البيت مثل نحلة، نقرها الخفيف على الباب بين الحين والحين كان للسؤال عما إذا كنت أحتاج شيئاً.

غرباء يتحركون في هذا البيت من دون تدخلي بتوالي الأيام. أخشى أن ألوم نفسي على تفكيري أيا كان وأن أندم لطلبي المساعدة من أمي. خلتُ حتى القطط تكاثرت حول البيت بسبب دلال أسل لها، لا تني تموء وتخمش بأظافرها الباب طلبا للمزيد من الطعام.

كنت أشعر بعطش ملح مع اضطراب في جسدي، وأعرف أن أمي

قد أخفتْ كل أثرٍ للكحول في زوايا البيت. أسمعها وأنا في سريري وقد انقطع تيار الكهرباء وسادت العتمة. صوتها في الصالون وهي تدندن يعيدني إلى زمان لا أستطيع أن أحدّده، زمان من سراب حُفِرَتْ سماته في رأسي فيما كانت رائحتها تتخلل أنفي وتعيدني إلى الأيام الخوالي؛ رائحة ملابسها، صور غائمة بعيدة لمشطها الخشبي المنقوع بالزيت، ظهرها وهي تجلس أمام مرآة صغيرة على تخت منخفض. كانت هناك أشكال ذات قوام تسبح في الفضاء أمامي، تنير في الظلمة وكأنها من الفسفور. أوشك أن أنادي عليها وهي تدور من حولي، تتحرك يدي ترتفع لتمسك بها لكنها تتحول إلى أشباح. أسل تحمل المصباح عاليا وأمي بجانبي في السرير تغيّر المنشفة المبللة بأخرى تضعها على جبيني الساخن.

أكاد أعدّ فقرات ظهره عن ظهر قلب وأنا مغمضة العينين. صوته صار يشبه صوت أبيه، يصلني من على التخت في الصالون وهو يضحك بصوت مسموع لحكايات أمي. يضحكني. كم يشترك مع أبيه في هذا. إنها حكايات «ذهب» يقول لها. أضحكُ بسري لحكاياتها التي تعيد قصّها عليه بحلة جديدة فنتوهّم سماعنا لها للمرة الأولى. قالت له إن أبيها لم يفارقها طيلة حياته ولم تفهم هي نفسها السبب خلف مناداتها له باسمه مباشرة. كانت ومنذ صغرها ترافقه وتعينه حتى في طلعات الصيد ليلا في الهور. «كان الليل مظلما وكنا نستخدم الفانوس لجذب السمك، كان أبي يصطاده بـ» «الفالة» لأتلقفه من بين أسنانها». «الفالة تحتاج إلى قوة ساعد وبصيرةٍ عُرف جدُكَ بهما، كنا نتوجه للصيد وحيدين وأحيانا تتوجه مجموعة بأكملها للصيد فيضاء الهور

بفوانيسهم وكأنه النهار والأسماك تتجمع حول الزوارق غير عالمة بمصيرها». بعد أن كبرتْ قليلا كان عليها أن تعمل مع الأخريات في حقول الرز. تصف له القرى التي تنقلوا بينها حول «الحلفاية» وغابات القصب التي كان زورقه يخترقها مستدلا على الطريق من علامات لم تكن تنتبه اليها، حتى أنها كانت تشعر أنها في مكان تائه وهي نفسها تائهة. تصور له جنة لم أسمع عنها من قبل بطيورها ونخيلها وأنهرها وأسماكها. لا أسمع لسلوان صوتا فهو منصت. لا أظن أني سمعت حكاية إصابة والدها بالعمى من قبل. راح صوتها ينكسر وهي تروي لسلوان كيف أنها غضبت منه ذات مرة لتدخلّه في حياتها عندما تفوّه زوجها الثاني بكلمة اعتبرها سيئة بحقها. لم يحتمل أن يعاملها الزوج تلك المعاملة فأوشك أن يضربه. صاحت باسمه تأمره أن يكفّ، ولما لم يمتثل طردته من البيت. وجدته في اليوم التالي وقد جاء بألواح القصب المضفور وبضعة جذوع نخيل، نصب له ما يشبه «الصريفة» أمام بيتها وقد حلق شعر رأسه تماما ليعاقب نفسه. بقي جالسا أمام بيتها كالحارس حتى أصابه العمى ذات صباح. أشفق عليه الجيران ووصفوا لها حالته التي طالت حتى اقتنعت وأعادته إلى بيتها، ولم يمر غير يومين حتى عاد إليه بصره. مازال الناس يذكرون ويتناقلون تفاصيل هذه القصة. يصعب على أسل خلالها الكفّ عن التعليق وقول ما يخطر ببالها؛ أسمعها من بعيد فتجعلني أضحك في سرّي.

فززتُ ليلا لأقصد التواليت. سمعتُ في طريقي إلى الثلاجة صوت سلوان، لعلّه يتحدّث مع نفسه أو يقرأ كتابا. يستيقظ عطفي عليه لمجرد سماع صوته. أتعكز بالأثاث حذرة في طريقي ثانية إلى الغرفة. ولم

تمـض دقائـق حتى انطلقـتْ صرخة حـادة عالية من أسـل. كانت تقف وسـط الصالون الصغير أمامي تحت الضوء الخافـت للمصباح، عارية تماما بشـعر متهدل طويل وقد تبعها سـلوان الذي كان عاريا أيضا وهو يطمئنها بأنه كان مجرد فأر صغير.

منتصف 2008

هـدأ البيـت وخلدَ كل من أسـل وسـلوان إلى النـوم، أو على الأقل انقطعت أسـل عـن اطـلاق ضحكاتها. اتصل أسـعد مجـددا في وقت متأخّـر ليـلا ليؤكد لي تكليفه لصديقٍ في دمشـق بتقديم المسـاعدة إلى سـلوان وأسـل. لم يتركني أقاطعـه. قال لـي مُطَمْئنا إن الشـاب عراقي ومتحمس، لديه دار نشـر صغيرة وسـيعمل ما بوسعه لمساعدة سلوان. لم يُطلع سـلوان أحدا منا على مجموعة أسـل الشـعرية. لم تقرأ لي إلا مـرة أو مرتيـن من ورقـة كانت بيدهـا. لم أنتبـه، ظننتها قد اقتبسـته من الإنترنيت. مرت الأشهر الثلاثة من دون رغبة منه في الكشف عما يفكر فيه وينشـغل به. كنا قريبين، نتناول الطعام ونتقاسـم القلق مما يحدث، ولكنه كان أبعد بكثير عني من أي فترة مرت بنا. كنت أشـعر أن شـيئا ما يُحاك من ورائي. بدا عنيدا ماضيا في خططه.

ربما كان يريد أن يتمم كل شيء بنفسه برأي أسعد. أسعد لا يشعر بما يدور في البيت بالطبع. وجد في الخطوة ما يمكن أن يقرّب سـلوان من الواقع. تبادلنا توجيه السـؤال لبعضنا، أسعد وأنا؛ هل كانت المجموعة الشعرية المنجزة لها أم له؟

عندما جاء ليخبرني عن رغبتهما في السفر لوحدهما لهذا الغرض صعقتُ. احترتُ. كانت أسل ترتدي ثوبي الستيني القصير الذي استعاره مني لها. لا تختلف بنيتها عن بنيتي كثيرا. كانت ناعمة الحجم ولم تكن قامتها أطول مني كثيرا وعجيب كم ناسب الثوب مقاسها تماما. تهدل شعرها وهي تقف إلى جانبه. يقف أمامي مُشرقا رغم نحوله. تبوح نظرتُه إلى أسل بتصميمه على تنفيذ ما وعدها به. كانت تُمسِكُ بيدِه، غيرَ هادئةٍ، تُكمل الجملة بدلا عنه، تسبقُه في شرحه البطيء وتزيد من التطمينات. هي التي أكدّتْ لي انهما سيتدبرّان كل شيء، لديها أقارب هناك، «لا داعي للقلق»، قالتها مباشرة. سيعودان من دمشق وبين أيديهما وليدٌ اختار له سلوان اسما فريدا. تعترني رجفة. تحضنه وتقبّله. ترنّ ضحكتها في أذني. ينفصلان لتقول سيكون اسم الديوان «أسل».

اختليت بنفسي في غرفتي واتصلت بأمي مستنجدة. كان يفترض أن نسافر إلى البصرة بعد تلقينا لخبر وفاة زوجها. لكنها منعتني على الموبايل. قالت إن كل شيء تم بهدوء، لا داعي لأن أشغل تفكيري ولنتجنب ما يحفّ بالسفر من مخاطر وتكلفة هذه الأيام.

حضرتْ من البصرة بعد يومين. قالت إننا أمام أمر واقع ومعقول، إنّ الدم يعود إلى وجهه ووددتُ تصديقها بشدة. حوصرت. أبوه كان يبدي استعداده لتقديم المساعدة من مكانه هناك وعليّ الإذعان.

وأمام إصرار سلوان المفاجئ على الفكرة كان علينا أن نتدبّر عقد زواج لهما من أجل استخراج جوازَيْ سفر. كدتُ أيأس من إكمال هذه المهمة التي شرعنا بانجازها، فليس لأسل المطلوب من المستمسكات، وسلوان ينقصه الكثير. انهمك القريبون معي في إعداد

اللازم، ولولا معارف هذا ووساطات ذاك لما انتهينا. دخل حسام يوما بينما كنت أتحدّث مع أسعد حول هذه العراقيل، تناول الموبايل مني وهو يغمز لي مبتسما وبعد تحية قصيرة قال لأسعد مازحا إنه يحمد ربه لغيابه، فلو كان بيننا لاعترض على سلوكنا وعطّل مساعينا قبل أن يستسلم ولعلعت ضحكته وهو يعيد الموبايل إليّ. حسام يعرف أسعد جيدا، كاد يعزف حقا عن اتمام معاملة جوازه آخر مرة حين كنا نهيىء أوراق مغادرته.

مرّ الوقت سريعا والجوازان سُلّما لنا عند الباب ولم يبق غير الترتيبات الأخرى..

أنزلتُ اللوحات التي اتفقتُ مع أسعد على بيعها، نفضتُ التراب عنها وتبرّع حسام بمساعدتي في تغليفها بعد أن اتفق مع صاحب المعرض على شرائها. بعضها اشتريناها، أبي وأنا، وبعضها الآخر امتلكناها أنا وأسعد من هدايا فنانين أصدقاء. خصصتُ حسام بلوحة عَرَض عليّ شراءها لتعلّقه بها، كانت لصديق عراقي انقطع أثره. فكرتُ أنّ حساما هو من يستحقها بأجوائها البغدادية. كان بوده لو يسأل صاحب المعرض عن مصير اللوحات بعد مغادرتها هذا البيت. يأسف لحقيقة أن لا أحد يفكر بقيمة ما نخسر. «أموت شوقا لها، لا تصدقين، بغدادك ضائعة عزيزتي، لا تدرين الآن لمن تعود، كان الفن في كل زاوية من هذه المدينة، أنت تعرفين اختفت أجمل لوحاتهم..» وكأنه يخفي خجله من قبوله الهدية ويبرر لي فرحه الكبير بها. «لن أفتقد شيئا يا حسام، تدبّرت الآن مبلغ المال لتغطية كلفة طبع الكتاب وفي حوزة سلوان ما يؤهّله للسفر ويضمن له إقامة وتنقلا مريحين».

أتتْ أسـل على حرق يدها بالماء المغلي، أفلتت الإبريق وهي تريق المـاء. صرختها كادت تفقدني وعيي وأنا في الغرفة. قفزنا سـلوان وأنا وجـاءت أمي بعدنـا. جئتُ بمعجون الأسـنان على الفـور. غطيتُ اليد اليمنـى التـي احمّرت في الحال. اقترح سـلوان أن نضع لهـا ماءً مثلّجا في وعاء لتبقي يدها فيه فالهواء سـيزيد من ألم الحرق، ففعلنا. اجتمعنا فـي الصالة لبعض من الوقت ثم نهضـتُ من مكاني بعد أن هدأ الوضع وتركتهم. كنت ما أزال تحت وطأة فزعي لسـماع صرختها حين ظننت أنه سلوان الذي حصل له مكروه.

فـي الصباح وجدتُ سـلوان قد أعدّ ما يلزم للفطور. مذياعه يرسـل أغانيه الصباحية القديمة. أمي سـاهمة على التخت مع استكانة الشاي. تحممت أسـل بصعوبة كما قالت، جاءت بفرشـاتها وطلبت من إحدانا مسـاعدتها في تمشيط شعرها. بقيتُ ساكنة في مكاني. توجهتُ بنظري صوب أمي إشارة مني إلى أنه واجبها وليس واجبي. كانت هي لحظتي لأرصد ما سـتفعله عندما اسـتدارت أسـل صوبها. تفاجأتْ والنظرات مصوّبـة نحوها. نظرتْ إليّ تطلـب نجدتي لإنقاذها من الموقف وكنتُ

قد حدستُ مسبقا ردة فعلها هذه. لن تستطيع فعلها. كنت أعرف ذلك، خطوتُ لأتناول الفرشاة من أسل وأطلب منها الجلوس لأساعدها. شعر أسل الطويل بين يدي. وقفتُ أسرّحه على مهل. يدي تنزل من أعلى الرأس إلى أطراف الشَعر وأنا أنظر إليها بين الحين والحين. تحرّكت الحرقة المتخلفة فيّ منها. كانت أسل خلالها تتحدث مع سلوان. وذهن أمي كان شاردا.

لم يبق الكثير من الوقت على سفرهما. بدأ صوت أسل يضايقني. لست متأكدة من الأمر، لعلّ صوتها راح يغطي على صوت سلوان. كان صوته يغيب ولا تعلو إلا كركراتها التي تطلقها لأمور بسيطة. لا يمكنني تفادي سماعها حتى عندما يختليان.

لا يبدو أنها تحرص الآن كثيرا على خفض صوتها، حتى أنهما تركا باب الحمّام مواربا. عندما خرجا قفزتْ ورقصت أمامي وصفّقت عاليا وهي تتقدّمه. رفعتُ رأسي فوجدتُه قد حلق لحيته تماما وشذّب شاربه. نظرتُ إلى طوله الذي أبرز نحوله. شعره المقصوص المغسول مسرّح إلى الوراء. صدره عارٍ وقد اكتفى ببنطلونه الجينز. صعقت. نظر إلي باستعراض بعينين متسائلتين ضاحكتين، وقبل أن أقول شيئا لدهشتي أقبلَ عليّ يحضنني.

تولت أسل اعداد الحقيبة ليلة سفرهما. أحضرتُ لهما منشفة وشرشفا كما طلبت مني، واختارتْ بنفسها القمصان والملابس الداخلية التي سيحتاجها سلوان ووضعتها بصف ملابسها في الحقيبة، كما جمعت فرش الأسنان والمعجون وأدوات الحلاقة في حقيبة صغيرة له. اتصلتْ أمي بالسائق الذي تعرفه وتحدَّدَ اليوم الذي

سيمرّ فيه ليصحبهما إلى سورية. لبستُ نظارتي وناولتُ أمي نظارتها وتأكدنا معا من جوازيهما، ومن حبوبه التي أمّنّ له منها حسام كمية كافية وتحدث بشأنها طويلا معه. وضعنا جزءا من الدولارات في محفظته والجزء الآخر في حقيبتها مع الليرات التي كانت بحوزة أمي التي اقترحت أن نجد لها مكانا ثالثا. تمّ شحن الموبايل الذي كلّفتُ جارَنا بشرائه، وسلمناه مذياعه الصغير مع بطارياته، وأخيرا سجلت له العناوين المهمة في دمشق داخل ديوان شعر ليوسف الصائغ أرسله أسعد إليه مؤخرا ولم يفارقه.

ذهب الجميع إلى النوم وبقيتُ أدور في المطبخ أقاوم حاجتي لكأس صغير كي أهدأ. لا أستطيع أن أستقر. أريد أن أستعيد يومه الأخير هنا بتفاصيله لوحدي. لم يسمح الوقت لننزوي ونتحدث معا، كأن البيت ازدحم فجأة بالناس فضاق ولم يبق لي فيه مكان.

نمت واستيقظت ليلا بعد ساعتين فوجدت أمي صاحية. المروحة انطفأت والحر لا يطاق، دردشنا قليلا بهمس، أنا من فراشٍ مدّدته على الأرض وهي من على سريري. الصداع ينحسر في النصف الأيسر من رأسي وينزل إلى أذني. يقترب الوقت وتتكاثر الأسئلة؛ هل كل شيء على ما يرام ؟ هل نسينا شيئا؟ الدواء، العناوين. طعامه وشرابه، نقاط التفتيش والحدود. جلست في مكاني في الفراش. ماذا لو صادفته مجموعة مسلّحين، العساكر يرعبونه، بدنه يقشعر من الزي القاتم والأجسام المسلّحة.. كيف سيتدبر أمره؟ لم يستطع الاعتياد على رؤيتهم، كأنه لم يولد ويكبر هنا. أفهمه، من الأفضل له أن يغادر، لا أريده هنا. أريد له مكانا أكثر رحمة به، وبغداد الآن أبعد ما تكون عن

كل هـذا. بكيـت. صاحت أمي بـي بصوت غاضب مبحـوح تحاول أن تخفضه؛ «اسـكتي، ما هذه الولولة، هل صرتِ عجوزا!». لم أستطع أن أتماسك. تكسّر صوتي وكرهتُ بكائي أمامها.

انشغلنا بسلوان وأسـل وتركنا كل ماعداهما. أثار التعب في صوتها عطفـي. لـم يمر الكثير مـذ فقدت زوجها. منـذ انتهاء مراسـيم الفاتحة وهي تشـعر باجهادٍ شـديد. ذبلَ جسـدها فجأة وبطأت حركتها. الضوء لم ينتشر بعد. نهضتْ بجهد لتصلّي ونهضتُ لأعدّ لنا الشاي. انهمكتُ بعدها في إعداد متاعيهما للطريق. سـينطلق السـائق بهما باكرا جدا، إن لم يحدث انفجار كما قال أو يُغلَق طريق.

عادت أسـل خيمة سـوداء. تغطّت حتى حنكها. رفعتْ حقيبتها من الأرض وتقدمتْ خفيفة إلى الشـارع. وقفـتُ عند الطارمة أحاول تذكّر مـا يمكـن أن يكون قد فاتنا. الجو مازال يحتفـظ ببعض برودة تهبّ من خلل الأشـجار فـي الحديقة. تأملت ما حولي للمـرة الأخيرة وكأن كل شـيء سـيتغير بعد لحظات، مترددة في غلق البـاب. تأكدتُ من وجود المفتـاح فـي قفلـه من الخارج قبـل أن أفلته. أمي تسـير إلـى جانبه عبر المرآب بمحاذاة السيارة إلى الباب. كان يلّف ذراعه حول كتفها ويساير خطواتَها. وعندما شـعر هاملت بانشغالنا سار لصق ساق سلوان والتف بيـن قدميـه وهو يطلق أصواتا غريبة. ترك سـلوان مـا بيده على الأرض وانحنـى ليحمله بيـن يديه يودعه. ألقيـتُ الربطةَ على شـعري وتبعتهم خارجا.

بادرت أسـل بالتوديع أولا، حضنتنا وجلسـت في المقعد الخلفي. رَفَـضَ أن أحضنـه. جلسَ متصدّرا السيارة إلـى جانب السـائق. هيأتُه

اختلفتْ حال وقوفه خارج باب البيت. كنت أحدّق فيه كأني لم أره من قبل على ناصية الشارع. مدّت أسل يدها المغطاة لتتناول مني متاع الطريق الذي أعددناه لهما. السائق بدا على عجلة من أمره، وراحت عيناي تتابعان حركة السيارة حتى غيابها.

اتصلا بنا أول وصولهما. تحدثتْ أسل مع خلفية ضجيج صمّ أذني ثم أعطته الهاتف فاطمأننتُ إلى صوته البعيد واكتفيت.

أسدلتُ الستائر ولازمنا الفراش أمي وأنا لساعات. كلتانا تشعر بالإنهاك لكني لم أستطع النوم. نهضتُ لأعدّ لنا شيئا خفيفا نأكله قبل أن نشرب الشاي. لم نقل كلمة.

عادت أمي الى الغرفة بعد انتهائها من طقس اغتسالها الطويل. دخلتْ إلى الفراش وغطّت بالنوم ما أن استقر رأسها على الوسادة. أحكمتُ غلق الأبواب وشحنتُ الموبايلات ثم شرعتُ بملء القوارير بالماء ونقلها إلى الحمام لملء المغطس. تسلّلت إلى الحشية لألقي بجسدي، ولكني لم أعتد النوم في الفراش على الأرض. بقيت صاحية منهكة، وكأن حشرات أخذت تقرصني وتهيج جلدي. متعرقة دبقة. ضجرتُ من تقلّبي وأرقي. انسحبت بحذر لأتحمم علّني أرتخي. دلقتُ الماء البارد مرتين عليّ وتناولت المنشفة لأجفّف جسمي سريعا. لم أصبر على ارتداء ملابسي داخل الحمام فخرجت بها إلى الصالون المظلم. وقفت عارية قريبا من التخت. تناولت السروال الذي تعثّرت ساقاي بارتدائه، ثم قميص نومي من البوبلين الذي لم ينزلق من فتحته الضيقة عبر رأسي فظل عالقا مغطيا وجهي بأكمله، جمدتُ في مكاني عارية، لم أشّده لينسدل، تجمّع الباقي من قماشه الخفيف عند رقبتي

والكتفيـن، تخيلتُ وجهي من دون ملامح، محشـورا داخل ثوبي، مثل ذبيحةٍ مكفّنة معلّقة بخطّاف إلى أعلى تدور ببطء شـديد يمينا ويسـارا. راحـت يدايّ تتحسسـان صدري العـاري، تلمّانه، تفردانـه وتضغطانه، كنت أتنفس بصعوبـة من خلف القماش مغمضة العينين. يصعد الحبل برأسـي المنفصل إلى الأعلى، جسـدي مثل لحمة ينزّ الـدم حارا منها، أطراف أصابعي تلامس حلمتيّ، تفركهما، تدعكهما، تتلاحق أنفاسي، تتبلـل البقعـة حـول أنفـي وفمي، يتسـارع نبضـي، أضغط علـى نهديّ بأطـراف الثوب المتكومـة فوقه، لاهثة مختنقة، يهتزّ جسـدي ويرتعشُ والرغبة التي تجتاحني مفاجئة مستعرة، تجول يداي بعصبية على أجزاء جسـدي، تقرص أصابعـي زندي، بطنـي، تغور أظافـري وتنغرز عميقا فـي لحمي نازلة صاعدة على جانب وباطن فخـذي، تنزلق يدي ملتهبة تحـت السـروال، يثن جسـدي للعنـف، يريـد الأذى، لأن تنسـحق كل أجزائـه بألم مـن دون هبّة هواء. أفرطُ بفعلي، بعَرَقـي، بلزوجتي، أقاوم اختناقي بلهاثي المتصاعد، أغيب، تنسد أذناي، أكاد أشهق داخل ثوبي، أحـرر يدي لأشـدّ الثوب وأولج رأسـي بقوة عبر فتحتـه لأتنفس. أفتح عينـي لاهثةً متهالكـة على التخت. صدري يعلـو ويهبط وقلبي يضرب بقـوة. أدسّ ذراعيْ فـي الكمّين وأهرع إلـى الحمام ثانيـة. أغلقُ الباب عليّ لأراقبني وأنا أسـحق الرغبة المبكية سحقا أمام المرآة بيدين تلوثتا بالدم.

انقطعتْ أخبارهما لأسبوع والموبايلات إما مقفلة أو لا تردّ، ويبدو أن تردّي الوضع الأمني في بغداد له علاقة بذلك، إذ تتردى حالة الشبكة كلما ساء الأمن. رنّ الهاتف فأسرعتُ لالتقاطه وكان أخي هو المتصل. صوته مؤدب وحنون. مازال يرفض الزواج، قالها ردا على سؤالي مازحة له. وجدتني أقول له إننا نتشابه هو وأنا، ولو كنت في مكان آخر لما فكرتُ في الزواج ولا رغبتُ في الأطفال. ضحك متفهما ما قلت. ثم تابع «مَن لديه سلوان لا يندم على شيء». شكرته وألفيتني أسأله إن كان يظن أن سلوان سيتدبر أمره هناك لوحده. أكّد لي ذلك وأراحني. كان يودّ أن يطمئن على أمي وصحتها. لقد ترك لها مبلغا من المال عند جارتها في البصرة، وهو عازم على السفر إلى دبي بعد أن دبّر صديق له عقد عمل هناك. سيتصل ريثما تستقر أموره. سيسعد لو جئته بزيارة هناك مع سلوان. سألني عن أبي سلوان وتردّد قبل أن يطلب مني التحدث مع أمه ليودعها. لكنها رفضت. هزّت رأسها نافية بحزم في مكانها. ألححت ومددت يدي بالموبايل إليها لكنها استدارت وامتنعت. لم أصدّق قسوتها. انفجرتُ بوجهها غاضبة

بعد أن أخبرته أنها نائمة فأنهى المكالمة على الفور. أشاحت بوجهها عني. ويلها، هذه المرأة لم تتغير ولن تتغير. مَن تظن نفسها، هل هي أمّ بالفعل؟ اعترتني موجة عارمة من الغضب بسبب موقفها من أخي. كنت أتخيل نفسي بدلا عن هذا المسكين. وها هو يتركني هو الآخر. دموعي حبستْ اللوم في صدري.

كانت درجة حرارة شهر آب لا تطاق. اتصل أسعد بي. الصوت وصل متقطّعا لكنه بدا قريبا حتى ظننت انه في بغداد. «هل حصل شيء؟»، «لا ونعم»، «قل بربك ما بك». ظن أنني سمعت بذلك قبله، اغتيال صديقه في وزارة الثقافة. أفجعه الخبر. كان على علاقة وثيقة به. «الجميع مصدوم للخبر، نخسر كنوزاً لا يمكن تعويضها، اغتيالاتهم مخيفة». كان الخط غير واضح وصوته يتذبذب ويرتجّ. أقسَمَ أن رغبةً تملّكته بالعودة. قلت له إن المدينة مهجورة مقطّعة الأوصال، وهو لن يرى غير فوهات مسددة ونظرات مخيفة. «سفلة ولصوص وخونة وطائفيون، لوّثوا المجتمع بكواتم الصوت». صوته حَمَل كل الألم الذي يمكن أن يمرّره خط اتصاله المشوّش. كيف سمع بالخبر؟ لكن خبرا مثل هذا لن يتأخر في الوصول إليه.

يدي تحضن الموبايل. لازمني صوت أسعد فترة بكَدَرِه. شعرت بيديّ رخوتين متململتين. نامت أمي والمذياع يبثّ من الغرفة أغنية قديمة جدا. الأواني والصحون تنتظر متجمعة في الحوض وقد تيبس ما عليها. درتُ في البيت من دون أن أنجز شيئا. هاملت يدور من الصبح في الممرات الخارجية ولا يكفّ عن المواء، أنهرُه فيعود إلى الخمش على الباب. دعوة للبكاء حسب. خرجت الى الحديقة. لم يتصل

سـلوان حتـى الآن. نظري اصطدم فجأة بمنظر الأسـلاك التي صعدتْ أعلى أسـيجة البيوت في الجهة المقابلة من شـارعنا بشـكل مرعب، لا أدري متى؟ الأسلاك مثل أشواك نبتت وارتفعت!

سلوان

الطريـق الـى الأردن كان طويلا. نحتل أبـي وأنا المقعدين في الأمام إلى جانب السـائق. المسـند من خلفي كان عاليا لم يتح لي رؤية الركّاب في الخلف. طلب اثنان منهم إغلاق الراديو. لا شـيء عـدا صوت الريح عبر زجـاج النافذة. فرغتْ علبة العصير فأبقيتها في يدي وأنا في حيرة أين أرميها. أشعر بالعطش وأسعد يدير وجهه صوب النافذة مع سيجارته.

لا أشـجار ولا عصافيـر، سـيارات محترقة وصحـراء مفتوحة فقط. للرجال فقط. رجال ينفثون دخان سجائرهم عبر شوارب سود كثيفة. كان الطابور طويلا جدا والسيارات تكاد تنفجر بالأمتعة المربوطـة بحبـال متينة فوق سـطوحها. كان ذلك في عام 1991، ورأيت أخيرا لوحات أرقام بعض السيارات عراق/كويت.

تأخرنا كثيـرا في طريبيل بانتظار ختم جوازاتنا. غادر الجميع من حولي. لم يبق غير سائق لفّ رأسه بمنشفة ونام على الرصيف. جلسـت قريبـا منه في الظل بانتظار أن يعـود أبي من المبنى الذي اسـتدعوه إليـه منذ سـاعات. ثم غابت الشـمس واختفـى الطابور الطويل الذي استدار كأفعى سـمينة نحف ذيلها الممتد مسـافة بعيـدة جدا من خلفنـا. انطفأ لون الأرض وانقلبت السـماء حمراء. لاحت السيارات في البعيد وكأن النار تشبّ فيها.

أتلفّت من حولي بخوف. لم أجد أحداً. صحت ولا أحد يجيب. عدت وجلست في مكاني. جاء شرطي وهزّ كتفي. كنت نائما. أخبرني أن أبي مازال في الداخل وأن عليّ الانتظار. سألني عن عمري ولم أفهم السبب عندما ضحك. قلت له اني الأطول قامة دوما من بين الطلاب في المدرسة. نهض واختفى. فكرت بأمي. حلّ الظلام واشتعلت المصابيح تباعا في المبنى. ظهر خيال أبي خلف النافذة بعيدا فبكيت.

عاد أخيرا وهو يهرول. نقلتنا شاحنة إلى مركز الرويشد. كنت جائعا. الطريق كان مظلما. رمى أبي بكيس الطعام الذي قال إن الشمس أفسدته، وعلي الانتظار حتى نصل إلى عمّان. أهزّ يده كلما ارتفع شخيره.

الإضاءة قوية. صالة الفندق مليئة بالرجال والأولاد الذين كانوا يرتدون الدشاديش والنعال. حركة مستمرة وضحكات عالية. لم تنقطع الأصوات الغليظة العالية من خلف باب الغرفة. لم تكن هناك غرف للحجز تلك الليلة. نمتُ على سرير حديدي في غرفة لصديق أبي، ونام هو قربي على الأرض. الضوء كان مطفأً في الغرفة والحركة قلّت بالتدريج في الخارج. أخافني ظل شخص من خلف الستارة أمامي. تركت السرير ونمت على الأرض لصق أبي.

لا تنتهي التحايا وأحاديث أبي أينما حللنا، مع أصدقائه في الفندق والمطعم، ومع من يلتقيهم في الشارع. وعدني بشراء موسوعة علمية حال مصادفتنا لمكتبة ما في الطريق. تركت موسوعتي المصورة للديناصورات في بغداد. تبارى الجميع معي بشأن التعرف على أجناس الديناصورات المختلفة وفق مواطنها، ولم يتفوق علي أحد.

لم أستطع النوم ليلا ثانية. ركبتي عادت تؤلمني لكثرة

المشي والصعود والنزول من المرتفعات. اعتادت أمي دهنها بمرهم ولفّ شرشف حولها لأرتاح. فتح لي أسعد قنينة ماء وناولني إياها وتركني أنام على الأرض إلى جانبه.

لم أستطع النوم لليلة ثالثة فقد شاركنا أولاد صديق أبي الغرفة. صياح الرجال في بهو الفندق لا ينقطع. أضواء السيارات تقترب ليلا وكأنها ستدخل عبر الشباك الواحدة بعد الأخرى إلى الغرفة. ظلالٌ تتوالى، تستطيل ثم تختفي، طوال الليل.

تركني أبي للقيام بمهمة خارج الفندق. كنت لوحدي أقرأ في الموسوعة ظهرا عندما تحرّك المفتاح في قفل باب الغرفة ودخل ولدان لم أرهما من قبل. تسريحة شعرهما تشبه تسريحة ابن صديق أبي. كان شعرهما مغرقا بمادة الجيلي. ثم سمعتُ نقرا خفيفا على الباب فدخل الثالث. بدوا جميعهم وكأنهم يكبرونني بسنوات.

تقيأتُ في صالة استقبال الفندق. أتى العامل مرتين بدلو الماء والممسحة. بقي موظف الاستقبال قريبا مني حتى وصول أبي. أخبره حال وصوله أنهم طردوا الأولاد الكلاب من الفندق وهو يعتذر لما حصل.

انتقلنا إلى مكان آخر. عليّ أن أحافظ على مفتاح حقيبتنا. كان جدي مريضا لذا لن تستطيع أمي المجيء في وقت قريب. أسعد يلح لآكل لكن بطني توجعني. تلح أمي علي بالسؤال، قلت لها عبر الهاتف ولأكثر من مرة إن الأولاد لم يقتربوا مني، وأني لا أريد الذهاب إلى طبيب. وقد وفيت بوعدي لها بالكتابة.

«ماما، الطريق الى عمّان طويل. الشمس تغيب والدبابات البعيدة على جانبي الطريق السريع تنهض ببطء على سيقانها الأربع لتشبه طيورا ضخمة تحاول أن ترتفع عن الأرض وتمشي، مثل دينا صورات

مبقعّة جائعة تبدأ بالسير فتبرز لها عيون كبيرة مجسّمة تشعّ وتُغشي البصر، زززززززز... تصدر صوتا ألكترونيا وهي تتقدم تجاهنا. عندما مررنا بها أول الطريق ظننا أنها محروقة منتهية، لكنّها تتكاثر، تحوّط صفّ المسافرين من الجانبين وتبدأ بالتهام السيارات في آخر الطابور الطويل، الطويل جدا. نحن مازلنا عند الحدود؟ رسمتُ الطريق بانتظار أن ينتهوا من التحقيق مع أبي. أنا خائف. الشمس تنزل وتغيب خلف الأرض بعيدا. يفرّ الناس مثل آلات شطرنج صغيرة من بين أقدامها. تتناثر حقائب الناس، أغراضها وأوراقها في كل مكان ويتعالى الصراخ. بابا، أصيح، أناديه لكنه يقف صامتا يتأمل جمال ألوان السماء عند الغروب في المنظر أمامه. بابا، أشعر به عاليا وبعيداً وأنا صغير تحته، أصيح وأشدّه من بنطاله لينظر إليّ لكنه يضع يده على كتفي، يربّت عليه ووجهه الى أعلى، يسير بي تجاه الوحوش المفترسة في نهاية الطابور وكأنه يسمع ويرى غير ما أرى. بابا، يبتسم ويحثّني لنمضي في طريقنا تجاه الدبابات الفتّاكة من دون أن يحني رأسه لينظر إليّ. لا يسمع ما أقول، اللون الذي ينتشر من حولي يزداد دكنة والنار المتوهجة منهم وليس من لون الشمس والناس تُدعَس ويدي تتشبّث به. «لنتقدم لا شيء يدعو للخوف يا سلوان، لا تخف». أودّ أن تجمد خطواتنا في مكانها ولكن قدميّ تتحركان أسرع وأسرع من دون تحكّم مني، أتقدّمه من دون سيطرة على خطواتي، تسرعُ رغم مقاومتي ويتخلف أبي عني مسافة. هناك من يسحبني وأنا أدور برأسي إلى الوراء مستنجدا به، أراه يُبطئ ويُبطئ وأنا أندفع الى الأمام وزخّ الرصاص على رؤوسنا، الناس ديسوا بالأقدام الحديدية اللماعة، خطوتي القادمة ستكون في فم الطير الضخم المتوجّه بجوع نحونا، يزعق متهيئاً للانقضاض عليّ. بابا... لكني أسمعه يقول وهو شارد بفكره: انظر فوق، إلى الغروب في الأفق.

يسير بتأنٍ ولا يلحق خطوتي الأخيرة ليمسكَ بي. سيدعسونني بين أقدامهم وأموت. أريد أن أصرخ عاليا ولكن صوتي يختفي ولا يطلع إلاّ هواءً محشورا: باااباااا».

سلّمني مبلغا من النقود قبل أن تصل الخالة صديقة جدتي إلى الفندق لتصحبني إلى بيتهم. قال إن علي أن أحتفظ بالمبلغ لعلني أحتاجه. ستكون إقامة مؤقتة عند هذه العائلة ريثما تصل أمي من بغداد.

كان بيتهم باردا نظيفا وكان فيه بنات جميلات. كان فيه وفاء! حلمتُ منذ مبيتي الليلة الأولى أنها تملكُ جناحين ريشهما طويل أبيض. اقتربتْ جدا مني وانحنت وقبلتني فتساقطت خصلات شعرها على وجهي وغطّت أكمام ثوبها الواسع صدري. كان ثوبا حريريا بلون أبيض شفاف. ابتسمت لي وداعبت خدي فشممتُ عطر صابونها. استيقظت صباحا وبقيت في الفراش، أسمع ضحكات البنات الخمسة في الصالة مع صوت موسيقى راقصة. ترتدي وفاء ثياباً بلون أبيض وزهور وردية اللون، تطلي أظافرها بذات اللون، كذلك شفاهها. تنحني قريبا مني لتطفيء شمعة صغيرة.

لا أحد يعرف بعد يومين أني بكيت بسبب بطني الفارغة، ولأن وفاء التي فاحت رائحة شامبو شعرها في أرجاء المكان ستخرج مع خطيبها وتتركني. تلحّ الخالة علي لأجيب. تتصل بأسعد الذي كان خارج عمّان لتخبره بشأن صحتي فأخشى أن يأتي ليصطحبني معه.

وفاء المستحمّة للتو دوما ظلت الوحيدة التي كنت أتخيلها لصقي تحت اللحاف طوال سنين مراهقتي وحتى بعد تجاوزي العشرين.

❖

أمي كانت غارقة في حزنها عندما عدت إليها من عمان. غادرنا جدي فشعرنا بالخوف هي وأنا. والخوف كبر وكبر فيّ حتى بعد عودة أبي. كنت وحيدا وإن كنت أكره شيئا في بلوغي فلم يكن غير المرآة حين أتطلع في وجهي وجسمي.

العالم من حولي مجموعة الأشياء غير المنسجمة مع بعضها، مثلي تماما. ازدرى الأولاد في المدرسة موقفي حين تملصتُ وعدت إلى البيت. كنا في طريقنا الى البيت الذي سنضاجع فيه أول امرأة. تركتُهم في منتصف الطريق وعدت. شعرتُ بنفسي مضغوطا علي، ملاحقا، ولن يفهمني أحد. ركضتُ بأقصى سرعة لأصل بيتنا وأدخل غرفتي وأغلق الباب عليّ. أرمي بنفسي على السرير حنقا. أني وحيد. يهدر في داخلي عويلٌ جواني. لن أستطيع مسح الصورة القذرة لأولاد الفندق. أكره نفسي. الكابوس كان يتكرر بمشاركتهم فعلهم القذر، ينتهي بحاجتي المريضة إلى الصابون والماء. أمقت الرغبات وألعن شياطينها. وفاء! أحاول أن أستدعي خيال المرأة تلك لأسكت خوفي، أن أستدعي رائحتها وأطراف شعرها المبلول، انحناءتها علي وأسنانها البيض عبر ابتسامتها. وحدها وفاء برقّة لمساتها، بالوردة التي تداعب خدي بها تشعرني بالارتخاء تحت اللحاف.

❖

الجامعة التي أجبرت عليها لم تكن المكان الذي تصورته. حاولت في البدء أن ألتزم بالدوام، تحت ضغط أبي وأصدقائه وأمي وإلحاحها لكن كان هناك في الأجواء ما يشعرني بالنفور. تحولت أروقتها إلى أرصفة وأكشاك للبيع مثلما تحولت بغداد حينها. لم تكن الفرصة التي كانت بمثابة حياة كاملة لزملائي غير فخ للإيقاع بمن هم على شاكلتي. الذين كانوا بلا صفة محددة ولا

انتماء، الذين يتلفتون من حولهم خائفين بقاماتهم الطويلة ونحولهم كالغرباء. خوف مريع كان يلازمني من أساتذتها، من رجال الأمن فيها والبنات اللاتي كن يلتصقن بي ويتحاشينني وفق أهوائهن. حياة ملغزة وعوالم غامضة لا أستطيع اقتحامها. كل شيء فيها كان معروضا للبيع أو المقايضة، الدفاتر والكتب المهلهلة، ورقة الامتحانات وساعات الآباء، وحتى الأجساد.

خفت من الطريق، من دخول القاعة ومن حضور الدرس وفشلي، وخفت من أبي وأمي لبقائي في غرفتي ولكني في النهاية لم أقو على شيء فتركت للجميع أن يفعل بي ما يريد.

صار ليلي طويلا وغطائي أراه مثل شبكة ألقيت عليّ وكنت أمسك بنفسي وأنا أضرب وأرفس بقدمي أريد التخلص من هذا الشرك الذي وقعت فيه. أفزّ للطرق المستمر على الباب والأصوات المختلطة التي تبقى تلح من خلفه وتضرب رأسي، صوت أبي الغاضب وصوت أمي المتوسل. وكلما زاد نبض قلبي زاد تصميمي على غلق أذني والاستسلام. شيء ما فيّ كان يجمد تدريجيا.

❖

برغم أن عددنا هو في الغالب ثلاثة، والبيت واسع كبير أشعر بالمكان يضيق بنا وأننا نتصادم ببعضنا، وأن غياب واحد منا كان سيُحدث فارقا. لكن محاولاتي انتهت بالفشل، مثل محاولاتها فقد انتابني خليط بين الحزن والغضب للكيكة التي خبزتْها والشموع التي سطرتها بعدد السنوات التي أتممتُها. لم أشأ الاحتفال بعيد ميلادي. تبعتني إلى الغرفة. وقعت عينها للمرة الأولى حينها على قنينة الشراب قرب سريري. أخفت عني صدمتها. تتمنى بنظرتها الحزينة لو أني أشفى من أفكاري. شعرها معقود إلى الخلف وخصلات شعرها القصير مسبلة على جانبي خديها. أرقبها وهي تتلكأ قبل

أن تعدّل من وضع الشال الذي يلتف حول كتفيها النحيلين، قبل أن تستدير بانحناءة تعب في الظهر عند الباب، هي التي تعتقد أن الحب يُسند ظهورنا فنقف باعتداد من دون أن نتنبه لذلك. تودّعني بعين متوسلة وقد عبرتُ العشرين، تتمنى أن أغادرَ الغرفة.

أعرف أنها خرجت بجرعة إضافية من الحيرة. أحزن لأجلها. إني مكبّل وهناك من لا يتركني أستسلم وأهبط إلى تلك العتمة العميقة لأرتاح. ربما لو كسرتُ حصاري ونظرت في الأعالي سأجد من هو أكثر رحمة بي. آه لو تفلتني!

❖

ألازم البيت وتمتثل أمي وتتراجع. انهمكتْ مع أبي في نقل ممتلكات جدي ولكن من دون تصنيف وتوضيب. اختلطت خصوصيات الثلاثة معا. لا امتعاض يصدر من غيري. زحمة في الأثاث والكتب والتُحف. تختلط كتبها، صورها، مجلاتها بكتبه وكتب جدي. ولأنها مشوشة دوما لا يمكن طلب المساعدة منها اطلاقا.

لا أحد يستطيع التخلص مما تبقى لديه، بالمقابل يبدو الجميع كأنهم تبرأوا من مراحل في حياتهم، لا يريدون لها أن تعترض الآن طريقهم.

يعترض البيانو الطريق، هذا الكائن الصامت بحجمه الكبير فيقرران نقله ليوفرا لي فسحة أكبر في المكتب. لكنهما يتراجعان خشية إلحاق ضرر به. لا أحد يمنحه النظرة التي تمنحها هي إياه كلما عبرته، وأسعد يقول إن ما تبقى هو إعادة أو اجترار محض، كتلك المطبوعات من الكتب المنسوخة أو المربوطة المخفية. لم يفتقد أحد منهما شيئا أو يقترب ويلامس شيء. لم يتملّ أحدهما النظر بلوحة أو يقلّب أوراقه وصوره.

كلّ له إطاره الخاص. ها هي بشعرها المرسل وثوبها القصير وقد برزت ركبتاها تشترك مع صديقاتها بضحكة مشرقة لحظة التقاط الصورة. أفك الإطار وأنزع الصورة لأجدد خلفيتها القديمة. التوقيع بخط يدها في الظهر، أوائل السبعينات مع أسماء البنات. الصورة الأكبر حجما هي لجدي يمسك بعصاه ويسدد نظرة يبدو فيها حازما جادا ببروز واضح في عظمتي خديه.

❖

إنها سونيا التي تحبني وتؤمن بي كما تحبه وتؤمن به. إنها سونيا التي ترفض أن يلوثها العالم الذي يحوطنا بوساخته وتحثني بالوقت عينه على إلقاء نفسي فيه. أعدّ الدقائق بعد أن تغادرني فهي سرعان ما تندم وتعود لتتأكد من أن باب غرفتي مازال مغلقا وأني مازلت ممددا على سريري الأبيض النظيف، كما تركتني. لا أرض للفكرة هنا ولا الأفكار ذاتها تستحق أن نقرأها وندرسها ولن يطلع أذكى الأذكياء بفكر يمكن أن يترجم الواقع.

لماذا اختار دوستوفيسكي الإسم هذا، عشرات بل آلاف الأسماء ومن بينها سونيا! يستوقفني رنين الأسماء، أم ظلالها؟ تعلم سونيا القديسة أن العالم في الخارج وحشي، إنهم يدرّبون الذكور على الافتراس كما يدربونها هي على أن تتقن دور الفريسة المثالية. إننا جميعا متهمون وهي ربما ستعلّق جثة عند باب بيتها كدرس في الشرف. إن الطفولة تتضور جوعاً وفق خطة مدروسة، وتعلم أن الأنوف الصغيرة ستتدرب على شمّ رائحة الدم والخوف والضعف بسهولة. تعلم أن الاحتفال بالرجولة يكون عبر الغريزة والعنف، فجارنا كان يوزع الحلوى والعصير احتفالا ليس بنجاة ابنه ذي الخمسة عشرة كما قيل، بل لأن الشرطة أمسكتْ به وهو يغتصب مومسا في سيارة مسروقة. أضحك وأحقد بسرّي على

هذا العالم. على الإبن أن يثبتَ للأب إنه رجل وعلى الرجل أن يثبت لزوجتـه إنه رجـل، بينما الفأر... هههه... يحـاول أن يثبت لي جبنه ليسلَم! أين تختبىء؟ يا لك من كائن مسكين!

غريب هذا البيت بالعطب الذي فيه، تصيبه اللعنة على دفعات، لعنة أولى، ثانية.. وكأنه مشهد خرافي، حين تدخل المملكة في سبات طويل لسنوات، فتنمو الأشواك وتعلو بانتظار من يخلصها من الشر الذي لحق بها.

تمـرَ سـونيا مرورها المأسـاوي بالمرآة، تتحسـس سـريعا ذيل شـعرها القصير. أرقبها. تنظر وهي جالسـة إلى السقف مثل ملاك فـي حيرة مـن أمره في الصالون. تتأمل سـاهية الماء في المطبخ، يُذهِب قطرة بعد قطرة بالصابون الشحيح الذي غمرتْ به صحونها عند حوض الغسيل.

دخل وهو يتوكأ على جدتي. انقطع الكلام. احتاج إلى ليلتين لينام بعد أن أفرجوا عنه. التصقت رائحة المختطفين بثيابه فطلب حرقهـا. كنـت أحرّك النار التي اندلعت فيهـا خلف البيت بخوف. شـعرتُ بأن كتفي هي التي انخلعت، وألم بطني هو نتيجة الرفس الذي تلقيته أنا وأن الرائحة ملتصقة بي لا به.

أتأملهما وهما يحتسـيان الشـاي بصمت وقد صـار اجتماعهما صورة لحياة مؤجلة. كأن البث ينقطع ويعود، بينما نحدس أن ثمة عطلا. والعطل هو أنا. لا أحد يعلم بما يدور في رأسـها. إنها تعتني بتغليف ما دفنته سرا، داخل ورقٍ أسمر سميك، تقص الشرائط بعد أن تقيس أطوالها وتعقدها بأناة حول الشـقاء بوردة. كيف لا تمتد يده عطفا وتسرح متمهلة على ظهرها المتعب لتعد خرزه!

الغلبـة لـي وإن كانـت نجاتـي بعد نجاتـه آنيّة. ألاحق أسـعد باعتراضي على الحياة، على أفكاره التي تراجع عنها لجبنه. اختفى

اصدقاؤه وانحشرت أمي في شق ضيق بين الماضي والحاضر، بيني وبينه، وأطبقت الأبواب علينا. كان عراكنا صامتا، فقدنا أصواتنا، واكتفينا بقياس الدم الفائر في عينيه وفي رسغي. أحدهم تسلل ذات ليلة ليستأصل حناجرنا أو يقطع أحد حبالنا الصوتية. كلٌ يصنع حياته بنفسه وكل يصنع تاريخه، كنت أقول له ذلك في سري. وأنا وقفتُ على خوفه وصرنا متساويين. هو في ليلة اختطافه وأنا في دخولي الثقب الأسود المهول بحجمه. ليكفّ عن المراوغة وليظهره أمامي. لكني أراهن أنه سيهرب. لن ينظر في عينيها وسيهرب. لا ضرورة له مثلي، إن كان يشبهني بضعفي.

أبحث في خيالي عن مكان أطلق العنان فيه لأنفاسي لأستنشق هواءً نقياً. سرعان ما سأختنق، والفكرة لا أعلم من أين تباغتني وتملؤني رعبا. ينغلق ممر الهواء إلى رئتي وأكاد يصرخ.

يراكم أسعد جرائمه. جريمة بعد أخرى ليتمتع بمعاناته، ولعله يؤمن هو الآخر أنها السبيل الوحيد لشفائه. يطيلها بالهروب من الحلول وهي لا تعلم أن له القدرة على المناورة بخلافها. هل تسلل الشك إلى قلبه فمرض؟ أم أنها أفكاره التي يحسب أنه خانها؟ بل لأنه لم يجد لها مكانا في الواقع الفقير الفارغ. ما هي أفكاره؟ لعله نفسه لا يعلم، ها أنا أصعد وأنزل على سلّم مكتبته علني أجد جوابا. هل هو عقله أم قلبه الذي قرر المغادرة؟ لا، لا أظن ذلك، لا قلبه ولا عقله تدخّلا في الأمر، من يقف خلف خطته المجنونة وتوقيت قراره إذاً؟ إنها أنانيته، أنانيته التي جعلته يدير ظهره ويغادرنا!

❖

سمعي كحيوان ليلي آخذ في التطور. وفأري عكس كل الحيوانات المرعوبة يشعر بالأمان فيسرح ويمرح في المكان

ويتسلى بمضغ كتبي وبصقها. تزداد حساسية الإذن لأقلّ حركة. أتتبعه من دون أن أفلح في العثور على جحره. لعلّ الكتب هي التي أعطت فروته هذا اللون المتموج ليتخفى ويتوارى. قرّرت من أجل ذلك أن أرفع كتبي المفضّلة إلى الرفوف العليا بعد عزل الأدب المترجم عن الأدب العربي وتصنيف الأخير.

إنه مثلي في حركته هذا الفأر في هذه المتاهة المقطوعة من الزمن، فالتاريخ هنا يرجع إلى الوراء. يصعد بلند وسعدي والمتنبي وامرؤ القيس، تصعد أنا كارنينا تحت الرواية، دون كيخوته، الجريمة والعقاب، لمن تقرع الأجراس، مرتفعات ويذرنج، ذكريات من بيت الموتى، الحرب والسلام، هاملت، الملك لير... إلى اليمين النخلة والجيران، خمسة أصوات، الحي اللاتيني، الرجع البعيد، صيادون في شارع ضيق، الأشجار واغتيال مرزوق.. وكتابي الأثير أساطير إغريقية إلى جانب فناني عصر النهضة الإيطالية في عمود الرف الأوسط. ألوان الرسومات للكتاب بهتت لعتقه ولكنها مازالت تنبض بالعبقرية والوضوح المدهش. أتصفح الكتاب لأعثر على مخطط دراسة قامة الرجل على يد مايكل أنجلو. وكأنها منحوتة، مجسّمة، ضخمة كما في تمثال ديفيد المرمري الفذّ. تمر أصابعي تتحسسها، أدسّ أنفي كله بين شقي الكتاب لآخذ نَفَسا. تحرّضني هذه القوة واليفاعة، العنفوان في تفاصيل أجزاء هذا الجسد العاري المنتصب بقامته أمامي. أقيّد بعناية أسماء الكتب ضمن جنسها وتسلسل إصدارها الذي انتهى تقريبا أول الثمانينات. وكأنها المؤشر إلى انحسار الحركة في هذا البيت، عدا بضعة ضبّات ورق لكتب ممنوعة قام النساخون بتسريبها.

نضعها جميعا تحت الاختبار، دوما، سونيا تلك النقية المشوّشة، الصغيرة التي تتقدم من دون تردد لأداء امتحانها، طائعة، بلا خداع

ولا مآرب. ستتجح وإن تخلّلتْ خصلات شعرها خيوط من الفضة. مثل ورقة مرتعشة. أشتهي أن أقبّل نصاعتها بكل ما أوتيت من قوة، أن أغطي بضلوعي ضلوعها النابتة فيّ لأطمئنها. تتضرّج خدودها بالحمرة خجلا أو ضيقا مني، تصير صغيرتي بشعرها الأشعث المهمل وارتباكها.

الخلفية لكونسيرتو باخ، تغسل المجون والفحش في الخارج وتشوّش على صوت الكرات الحديدية المستوردة للدكّ والتهشيم. هي أيضا حفلات ليلية لمشتهي كارلا وكاثي وسكارليت ولوليتا ووصال وسراب وسونيا وكارينينا وشهد ورامة، مستقرّات هنا منطرحات على سجادة الحرير على الحائط يقرضنَ الشعر ويعزفن القيثارة، هنا يفترشن السجادة على أرضية الغرفة، على التخت، في قعر كأسي والزجاجة والمزهرية الكريستال واللمبة وعلى الإطار الذهبي للمرآة الصدئة الكبيرة وعلى الملاكَيْن بجناحيهما على الجهتين.

لولاي لما كان مبررا لبقائها. اللعينة تقنعني بذلك. هل أريد من يقنعني بذلك. ما حاجتي لذلك؟ لم تفهم سؤالي. ما حاجتي للحياة؟ «ما قيمة الحياة، إنها محض حياة، قد تعود لفأر أو حشرة، لا أحد سيشعر باختفائه، باختفائها لو دُعس، لو دعست». الظلمة إنما هي داخلي الذي أخاف أن تتركني وحيدا معه. سجين الغضب وهو يستولي علي فأستنجد بها، بالله كي يحمياني من نفسي.

شوبرت يدخل في ضرباته الأولى ذلك الليل المعتم، صهيل خيل وحوافر وصفير ريح في غابة. إنه يقدم عليه بتحدٍ ويجعلني متوحدا مع أنين العالم المحسوس. محموم أكاد ألفظ أنفاسي الأخيرة و«ملك الغاب» مازال يتبعني. إلى المناطق السوداء الشفيفة حيث الدمع. البكاء مثل زيت يوقد القناديل من حولي. قناديل لامعة

متلألئة تنوّر فضائي. ولكن لا نور ولا عتمة في الخارج. كل شيء في الداخل، حتى هي هناك، لا مكان لي في الخارج. لا مكان لي في الحاضر ولا الماضي.

❖

ضحكةٌ تتلفّتُ يمينا ويسارا بحثا عن أذنيّ. ضحكةٌ شقيةٌ غريبة تعبر وتصعد بتنورتها القصيرة أعلى سلّم الموسيقى وتقفز من فوق إلى أسفل. وتعود من جديد لتتطّ، لا تملّ اللعب، تثيرها الكرات القطنية المتدلية من جانبي جوربيها. أسمع بالإسم من خلف الباب لصوت الزائرة الغريب الحاد. إسمها ضاحكٌ وكأن به رجفة وإقتحام ووخزة وعطش.

ستظل معدتي تتقيأ. أفكر أحيانا أنها تلفظ القبح بأنواعه. لن تهدأ. لا يستقر شيء فيها حتى تموج وتتقلب وتهزمني. أترقب لقمتي وهي تنزل بطيئة. أرصد استقبالها تحت في أمعائي. هل هي وظيفتي الجديدة أن أملأ وأفرّغ ما في داخلي؟. يزعجني الغثيان الذي يلازمني. أتعرق وأرتجف وأختنق وتخذلني ركبتاي ويحفر باطن قدميّ نبضٌ مؤلم كلما اصطدمتُ برؤية هذا الزي القاتم الذي أتحاشاه. من أين لي أن أتفاداه؟ وكيف يمكن لخيالاتي أن تستمر لتبعد أشباح تلك الوجوه وتمسح بشاعة المناظر، تلك الوجوه التي تصفعني على وجهي وتتخفّى خلف هذا اللباس الحقير الذي يريد النيل مني. هذا السلاح الذي تتخفى من خلفه قشور الذكور. لمن كل هذا الموت؟ مَن يستحقه، من أجل ماذا؟ هل عرفوا الحياة؟ من هو هذا الجدير بموتنا؟ هذه الوجوه الممسوخة المقنّعة، والفظاظة التي تنتقل من لون القميص وخشونة البنطلون إلى البسطال والخوذة. تحوّلهم إلى حيوانات مفترسة، حيوانات مفترسة تعتلي مركبات فتّاكة. تلك الآلات والملابس، واللغة التي

تصدر من أفواههم. يدورون كالذئاب في الشوارع وينطّون فوق السطوح بحثا عن رائحة دم. أين وجهي؟ هل هذه هي الحياة حقا؟

انهالت الأحلام علي بتأثير الحبوب. أين هي السعادة التي يفترض أن تمدني بها! تقترب مني أحجام عملاقة لأناس لم أقابلهم، تتحرك وتتكلم أمامي، أخشى أن تأتي يدي على لمسها بينما أنا نائم. تبدو طيبة، وأحيانا لا ينفع معها لا الحيلة ولا الاستسلام أو المسامحة. أحاول أن أفهم سبب مثول أولئك الناس في أحلامي فلا أجد مبررا. قال لي الدكتور حسام انها المرحلة الاولى من تعاطي الدواء؛ حاول أن تفكر بها بدلا من أن تنفضها عن رأسك. لم أستطع التعرف على وجوهها. أستيقظ صباحا فأجدهم أمامي، أسير منذهلا وأتدافع بينهم، بعضهم قد تحجّر وبعضهم يختفي فجأة.

أترك لشوبرت أن يمعن في إيلامي. تنحدر دموعي. كلمات غوته تنحفر في قلبي. نداء الطفل المتصل؛ إلى أين أنت ذاهب بي. أعيد عن قصد الاستهلال وأترك لضربات البيانو المنذرة أن تفعل فعلها في روحي. تعيدني كل مرة إلى هناك. إلى طريق السفر الطويل الذي يسكنه إله الموت المتربص بالمغادرين والقادمين.

❖

يوصيني الدكتور حسام بتقليل الكحول، مفضّلا امتناعي عن تناولها. بودي لو أردّ عليه في الحال، ولكني أمسك عن ذلك جبنا. نصّب نفسه بابا نوئيل بالنيابة. يوزع الهدايا والمسكنات كلما زارنا. تعتريني حالة من العصبية لهباته ومشوراته واهتمامه، وكأنه يملك الحلول ويستشرف القادم. أراقبها وهي مستسلمة في حضوره فتنتابني مشاعر متضاربة، مشاعر بين الغضب والعطف والضعف. كنت أتمنى لو أنه يتركني لحالي، لو أنه تخلى عن واجبه إزائي وركّز في جهده على معالجتها.

أتمنى ألا تصل ضحكاته أذني. أتمنى لو كانت الحلول لديّ وليست لديه. لكني مدين له برغم كل شيء بالكثير. لا أدري، لم يكن باستطاعتي تحاشيه، لم أفلح بل أنا الذي قصدته. ربما لأنه يخوض في مواضيع لم أعتد عليها ولم يجاهر أحد بها أمامي. أعجب حين أتذكر حديثنا وكيف تجاذبت أطرافه معه. كنت في فترة لم أستطع أن ألامس فيها واقعي. أطوف تحت حالة من التخدير فوقه وأتحاشى أن أصطدم بشيء. لا أذكر كيف استهلّ الحديث. هل حقا أنه مرّ بما مررت به؟ ليس هناك من يفهم. أردت سماع المزيد منه، يخيل إلي أنه يحاول ابتزازي بكلماته فأشعر بالخوف منه.

كنت في الحديقة مع هاملت عندما زارنا مرة. جلس إلى جانبي أرضا على دكة «الطارمة» عند ممر الحديقة. كانت شمس منتصف الظهر قد جعلت من الشتاء ربيعا. تسلسل في الحديث واكتفيت بالانصات. ولكنه ذكر لي نعتا دارجا لم أتصور نفسي أشارك أحدا مناقشته في يوم من الأيام. الكلمة ذاتها التي أطلقها عليه الأولاد في المدرسة. «مخنّث»! كان يضحك وهو يسرد لي تفاصيل قصته، لكن يديّ كانتا متعرقتين لكثر ما أشعرني الموضوع بالحرج. أنا أشك في صدق من هم أمامي، وبينما هم منصرفون في حديثهم أروح منهمكا في البحث عن صورهم الحقيقية في الخلف وعن دواعي ما يقولوه. لا يضحكني ما يضحك الآخرون، بل أجد في ذلك تسفيها وسخرية مني، لذا لم أشاركه الضحك وبقيت بانتظار ما سيتبع استهلاله. أطال النظر في عيني، ليمتحن صبري أو ليجرني إلى الحديث. كنت مرتبكا عندما تطرقنا إلى الطفولة. وجدت أن العالم كان ينظر إلى الأطفال على انهم كبارا ومن ضمنهم أبي، وكان الجميع

يقول؛ عليكَ أن تسرع لتكبر وأن تظهر خشونة كافية وأن تماشي الكبار. لا وقت للتوقف عند الأشياء الصغيرة، سواء كانت أجسام أم أفكار أم مشاعر. حدثته عن المكان الذي شعرت فيه أني وحيد في هذا العالم. كان في «طريبيل» عندما تلفتّ من حولي ولم أجد أحدا. حتى أبي الذي استنجدت به لم يكن ليحميني. شيء خارق نزل من الأعلى، من مركبة فضائية لينزرع فيّ. ظل هذا الخوف يلازمني حتى هذه اللحظة. كرهت نفسي لشدة خوفي وللصدفة التي وضعتني في الموقف إياه في الفندق، حين أجبرني الأولاد على مشاهدة ما كانوا يفعلوه ببعضهم. كأن عذريتي راحت وراحت معها براءتي إلى الأبد. هزّني الحادث وضاع شيء عزيز مني لا أعرف ما هو. ظلت حالة الغثيان ملازمة لي، وصار اقتراب الرجال مني يجعلني أجفل في مكاني. ذكرت له أن أحد أصدقاء أبي نعتني حينها عندما كنا في عمّان بـ «ابن أمه» وهو يدفعني بعيدا عن أبي. لم أنسَ المهانة التي شعرتُ بها، ولا أنسى ما حييت وجه أبي الذي لم أفهم سبب مشاركته الضحكة التي أطلقها الرجل حينها. أتمنى بحرقة لو أسأله هذه اللحظة عن سبب تخليه عني ومشاركة صديقه الضحك. وتوالت خيباتي من نفسي ومنه. ظللت أرقب رجولته المزعومة. على الأخص عند دخولي الثانوية والأجواء التي حوصرت بها. لم يكن هناك من خيار. جعلني عدم تمكني من الذهاب مع الأولاد إلى بيت تلك المرأة أتمارض لأتغيب عن المدرسة. التذّ الأولاد في تعذيبي وفي التحرش والتنكيل بي. حتى ظننت أن الجميع يعرف سري أينما ذهبت.

اقترب هاملت مني وقفز إلى حضني وكأنه شعر بضيقي. توقفتُ عن الحديث لأسترد أنفاسي. قدّم لي حسام سيجارة ورحنا ندخن. ساد صمت طويل بيننا، انتظرت خلالها ردة فعل ما منه.

تحركتْ قسمات وجهه معبرة عن مشاركة في الإحساس، عن استهجان وتهكّم لواقع اتفقنا بنظراتنا على استحالة تغييره. سحق سيجارته على الأرضية الإسمنتية ورَكَنَ العقب جانبا. طبطب بيده على ظهري وأكد على ضرورة استمراري في تناول الدواء. أذكر قوله إن عليّ أن أختار طريقي وإن كان بيني وبين نفسي، شرط أن أكون صادقا. نظر إلي طويلا وهو يقول جملته الأخيرة فهززت رأسي طائعا خجلا. نهض من مكانه وهو ينفض التراب عن بنطلونه بينما كان يقول لي مستدركا بصوت مشجع متفهم باسم؛ «إن الظلم يا عزيزي يقع على الولد كما على البنت في مجتمعنا وفي معظم مجتمعات العالم. فكر فقط في ظلال ما اعتاد الناس قوله بشأن «بنت أبوها»، البنت المدللة الحلوة والأب الفخور المتباهي بحب ابنته وتعلقها به، مقارنة بالدلالة السلبية المراد منها في كلمة «ابن أمه»».

استيقظتُ في الصباح وتحممت. صعدت ونزلت، فتحت جوارير وحقائب. أكملت جمع لباس جدي على الفراش. كنت أتنقل بنظري بين صورته وصورتي في المرآة. القميص والبنطلون وربطة العنق والحمّالات والسترة والعصا والمسبحة والخاتم والجوارب والحذاء. إني مجنون، غير طبيعي، غريب، مريض، أفهم مواصفاتي جيدا. كنت أشعر بسعادة عميقة هادئة. أظنني وجدت حلا. أظنني وابتداءا من هذا الصباح سأختار ما أريد. أنا لا أريد أن أشبه أحدا ممن هم حولي، وفي زماني. أنا أنتمي إلى زمن مجهول بعيد جدا، أو قادم ربما، زمن أكثر سلاما وهدوءا وتسامحا. سأكتب وسأختار هوية أخرى أو هويات. سأكتب! وكما لو أن القلم تحرك من مكانه وراح يبحث عن أصابعي ويحثها.

نظرتُ إلى شكلي مرة ثانية في المرآة، ابتسمت وغادرت

الغرفة. أعددت الشاي وهرعتُ إليها لترى هيأتي الجديدة. جلستْ بشعرها الأشعث في مكانها في السرير تحملق بي. تمنت وهي تحني رأسها جانبا لو كان الوقت يسمح لكي نخرج معا ونتمشى!

❖

لا تشاركني جدتي حبي للحيوانات. تحذرني من المزاح معها بشأن هاملت على الأخص. استغرب ذلك فقد نشأتْ وتربت في بيئة مليئة بالحيوانات كنت أتمنى لو كنت بنفسي قريبا منها. لو كان في كل بيت قطة أو كلب لما تعامل البشر بهذه الوحشية في ما بينهم، من شأن الحيوانات أن توقظ فيهم مشاعر رقيقة وأحاسيس نبيلة وفضول في التعرف على عوالم أخرى وتحسسها. لكنها تبعدني بيدها كلما جرّبت أن أدنيه منها. ليس تشاؤما وإيمانا منها بالمعتقدات. تكتفي بالقول أن لا ألفة بينهما. كانت تمنع دخول هاملت البيت منعا باتا في زياراتها لنا، قرار لا جدال فيه، رغم تحايلي عليها. قلبها لم يرق مثل قلب أمي، رغم كل ما بذله هاملت من جهد لكسب ودها.

أتنصّتُ للحركة في الطابق العلوي، لصوتها في الصالون بلهجتها الغريبة، لانصفاق باب الحمام وخروجها منه. صباح الخير في صوتها وأنا أقفُ بحذر خلف الباب مستمعا. أفزّ وتسخنُ أذناي عندما ينادون عليّ لأتناول الفطور معهم. أتخيّل معارضة أمي الدائمة وابتداء معركةٍ صامتة تديرها الأعين كي لا أسمع. اتركيه لحاله، سيبقى مريضا، أنت لا تفهمين وضعه، أقول لكِ سينتكس.

أتعبُ من الانتظار والتنصّت من خلف الباب. تغادر أقدامها متذمرة وينقطع الرجاء بإجباري على مشاركتهم.

يتعبني الاتكاء على الباب فأعود إلى الفراش لسماع الراديو.

لا تتقذني محطة من بين ما يلتقطه الجهاز. لماذا لم تأتِ. أينَها. موعد نشرة الأخبار.

يتوثب ذهني وألمس بعض صفاء ووضوح في الأشياء. بالكتابة نصاعة لم أعثر عليها قبل اللحظة وأنا أتلمس انعتاقي!

تضحكني جدتي التي تحاول ابنتها دفن وجودها ولا يني عطرها الزيتي يفوح. والجدة تتغنى بعصيانها المراهق في سردها لي مقاطع من حياتها، بتمردّها على من يحاول فرض سيطرته عليها وإن كان حبيبا. يقول أبي إن الشبه كبير بينها وبين جدي ما جعلهما يتنافران. أحاول أن أجد لها شخصية مكتوبة مماثلة. إنها خليط غريب من ثقافة عربية وتركية وبريطانية وروسية وأخرى من المؤكد لا علاقة لها ببشر هذا العالم وأعرافه. كنت أتخيل بيتها الذي تنهل قصصها منه مثل برج بابل بما حواه من أجناس ولغات. في مرحلة عصيبة من مراحل حياتها حولت بيتها الى فندق قامت بتأجير غرفه الأربعة لتتمكن من إعالة نفسها. أقام فيه المهندس الكردي والمرأة التركمانية الثكلى، والهاربة المتخفية من الناصرية والعائلة القادمة من أطراف المدينة. خيال أسبح فيه ولم أجد لبطلته دورا يليق بها. «أسرار» فهي الغموض بعينه من جهة، ولكنه مجرد اسم، رنين وخفة لا يتناسبان معها. لبيبة! اسم جارتها الذي يدعوني ترديده أحيانا للضحك عاليا وحدي. اسمها يجب أن يشير الى مادة صلدة وطيعة بالوقت نفسه، وهي التي جاءت إلي من البصرة مخاطرة غير آبهة في اقتحامها لساحة معركة. «ذهب» لم لا؟ لها سنٌّ مطلي بالذهب عندما تبتسم. ولكن موقفي محيّر تجاه هذا الإسم. إنه يشير إلى المادة والذخيرة ويوم الضيق والحصار، عدا لونه الشعبي المشعّ. ولكنه معدن جامد ليس بحاجة للكثير كي يفرض نفسه. ثقتها ليست متأتية من الذهب، بل من أبيها. حاولتْ أن تقول لي ذلك. ذهبْ تنادي أباها باسمه فيثب مُستعدّا

مثل كلبٍ حارس خلَدَ للنوم بالقرب من سيده. تبعها أينما ذهبتْ واستقرتْ. تناديه فتستحق الحياة فجأة أن يفتح لها عينيه.

أتعجّل خلودَهم للنوم. أتأكد من نومها وأشرع في تهيئة كتب الشعر ليوم غد. أنتقي لها ما يشجّعها على القراءة، القصائد الخفيفة أولا. ستقبلُ بالتأكيد على «قبّاني» قبل أن تقبل بالسيّاب كواجب ليوم غد.

لا تُشبه بانبهارها لمرأى صفوف الكتب على الرفوف أحداً. يتحوّل وجهها إلى لوحةٍ فنية تترجم ضوء الدهشة. أجل هناك أكثر من سببٍ لنبقى نشعر بهذا الشقاء الرائع. من يمكن له أن يتخيل تلك «الفزّة» التي شملت وجهها والحدقتين اللتين اتسعتا لتستوعبا المنظر. صرت أنظر بعينيها إلى كل ما تفاجأت به أمامها. أبقى ما حييتُ أعيدُ اللقطةَ، مرّات ومرات ولا أشبع.

على ضوء مصباح خافت أضعُ إشاراتٍ موضع القصائد المرشّحة. خمسة قصائد تكفي للدرس الواحد بظني. لن أدعها تختار لوحدها. سأكون أمين المكتبةِ الحازم المسنّ الذي يتحكّم في ترشيح الكتب التي يسمح باستعارتها من مكتبته. وسنُعطي الدرسَ حقه من الوقت.

أصفُّ الكتب المختارة فوق بعضها على المنضدة الصغيرة وأضعُ إلى جانبها الورق والأقلام المبرية والممحاة وأنتظر حتى يبزغ الفجر وتستيقظ. اختار اسطوانتين، آلتين أو آلة واحدة لمرافقتنا كخلفية للدرس.

معدتي تستقر مادامت فارغة. يجب أن أتأكد من خزّان المولّدة بعد ساعتين، من ملء الأواني ونقلها إلى الحمّام وضبط منبه الساعة أيضا. سأنام الآن لأعدّ لها الفطور بعد ساعتين.

❖

أسل لنجعل ثوبك الزهري حديقة ندوس على عشبها، الثلج يذوب والنبع يتحرك والوردة تتململ تود أن تشقّ الثوب وعنقها صوب الشمس. لندور وندور، لماذا؟ لنشاغل القبح على أرضية الحياة، أقسم أنه سيتعب ويتخلف مهدود الحيل وراءنا، دوري وستصلين الى الله. هل بوسعك أن ترَي المحجوب خلف الغيمة. انتظريني، نصل معا، انصتي جيدا إلى داخلك، ليس عيناك، اغمضي عقلكِ، الأهم، أجل غوصي عميقا في دواخلك وأنتِ تدورين، أجل دوري دوري، لندور، سأسندكِ، لا لن تسقطي، لا تخافي سيكون هذا طقسنا الليلي، الصباحي، هذه هي رحلتنا لنصل إلى بعضنا، لنصل معا الى الله، لنغادر أنفسنا، أجنحة تحملنا إلى سمائه بالموسيقى، دوري، أنك تشفيني، ينفتح قلبي الموصد، ألا تشعرين بقلبك يكبر؟ أنكِ تفقدين ذاكرتك الأرضية؟ لا تفتحي عينيكِ، أنت ترتفعين إلى فوق، تصعدين جُنينةً معلّقة أخرى من عشب وورد، أنتِ توشكين على التحليق، أنت تفيضين وتغرقينني، اصعدي أكثر فأكثر، أجل هكذا لتذيبي بمائك الحار جليدي. أشعر بالتحامنا، تخففي، حملكِ عليّ وحملي عليكِ، دعيهم، لا تخافي يديكِ، شفتيكِ، ليطلع صوتكِ، سنتجدّد، ستعودين أكثر صفاءً وحبا ونقاءً. الله يبارك اللذة، انه يعجب بما يخلق ويجرفنا.

لم يبق غير ساعات حتى يطلع الفجر ويحين موعد سفرنا. ضوء خافت جدا. بقيت جالسا في مكاني على الأرض متكئاً إلى الجدار أتصبّب عرقا. لم تغمض عيناي. السماعات في أذني، يد رحيمة تلعب على البيانو برشاقة وعاطفة تدخلني في عوالم آمنة، مساحات خضر رحبة مشرقة. بقيت أتأمل جوانب الغرفة، أفكر في جيناتي المعطوبة وعيوني لا تفارق أسل التي تغطّ في نومها على السرير.

صيف 2008

لاحقتني أمي منذ مكالمة أخي الأخيرة عندما امتنعتُ عن التحدث معه. «أم سلوان...» يتكرر نداؤها لي قبل أن أعي أنها تقصدني. تعلم بانزعاجي. لم أستطع أن أُخفي ضيقي بسبب موقفها منه. تجنّبنا بعضنا لأيام. تمنيتُ لو كنت وحدي كي لا أُجبَرُ على مجاملتها. انصرفتُ للنبش في الملابس الصيفية والشتوية في الخزانات والحقائب المركونة في الغرف المهملة. اعترضتني حقيبة كبيرة لُحِّفَتْ محتوياتها بمنشفة كبيرة بطريقة محكمة. واجهتني رائحة النفثالين حال فتحها. كانت مرصوصة رصّا بمفارش من الكتان لمائدة الطعام، مناديل للسفرة، وأغطية للأسرّة والشراشف، منها المطرّز، المحفور والمؤطر بتخاريم من حياكة السنارة والدانتيل. انها ولابد أم أحمد! أعرف طريقتها الرصينة في الخزن بأنواعه. لا أثر للكرات البيض التي كانت تحرص على بعثرتها في كل مكان. تذكرت إنه كان محتوى خِزانة البياضات الذي كان من ضمن حصتنا أيضا حين اشترينا البيت. الخزانة المبنية في جدار الموزّع في الطابق الأرضي. أذكر أني حين انطلقتُ أستكشف

البيت عند استلامنا له، كنت وكأني قد عثرت على كنز لمّا أدرتُ المفتاح الطويل الرفيع وفتحت بابيْها. كانت مقسّمة إلى رفوف خشبية عريضة توزعت عليها البياضات. يدٌ قاست المسافات بين كدسة وأخرى، يدٌ ضبطت طويات القطع المكوية المنشاة في صفوف، يد كانت تشير إلى نظام صارم دقيق كان متبعا في هذا البيت أبهرني. لم أفهم سبب خزن أم أحمد لمحتوى الخزانة بأكمله وركنه في حقيبة، كيف نسيتُها؟ ما السبب في عدم استخدامنا لها؟ الثنيات كما هي، ولا أظنها قد سحبتْ قطعة واحدة منها للاستخدام! كان باطن الحقيبة باردا وكأنها احتفظت بأثرٍ لرطوبة أنفاس لم تغادر مكانها. أغلقتُها وقد تجمّع سخطٌ كبير في حنجرتي على أمي.

انهمكتُ طويلا في ترتيب لفافات المخطوطات واللوحات القديمة وتغطية أنصافها غير المكتملة لأسعد. أنزلتُ كدسات الجرائد في الطابق العلوي لألقي بها إلى الحديقة الخلفية مع القناني والعلب الزجاجية الفارغة الموزعة في زوايا المطبخ وأعلى الرفوف. جمعتُ ما وجدته فائضا، ركنته في أكياس عند الباب حتى مجيء امرأة فقيرة كانت تمر بين الحين والحين. رميتُ الكثير من ملابس أسعد. لم أقترب من ملابس سلوان، كما ترددت في الاحتفاظ ببدلات وتنورات قصيرة لي تعود إلى أوائل السبعينات. انتبهت الى أن أمي رمت إبريق الشاي بغطائه المكسور. لم تعلمني بذلك، ولم تستأذن، وظنت انها تساعدني. كانت قد استهجنتْ احتفاظي به. كيف أشرح لها ما كان يعنيه الإبريق لي. لا جدوى من الكلام. لا شيء له قيمة عندها، لا شيء.

علا هدير محرك سيارة تقترب من البيت. أصوات أبواب السيارة

وهـي تفتـح وتطبـق. أنـزل درجـات السّـلم مسـرعة لأتحـرى الأمر. سـمعتها وهـي تتحـدث عند بـاب الحديقة. أزحـت سـتارة النافذة في الصالـة فرأيـت رجلا يقف قبالتها عنـد الباب وآخر علـى مبعدة. انهما ولاشك من رجال الأمن أو المخابرات كما تشي هيأتهما! خفتُ وطال انتظـاري لأعرف مـا القصة. أغلقت الباب بالسلسـلة وعـادت متهادية بمشـيتها. أخبرتني أنه مقاول عرض علينا شـراء البيت وسـألتني رأيي. هـي تعلـم جيدا أن العلاقة التي تربطني بهـذا البيت خاصة، لا وجود لا لأسـعد ولا لها فيها. لا أريد لأحد أن يمسّـه. «السـعر خيالي، لا يمكن أن تتخيليـه، وبإمكاننـا الحصول على رقـم أكبر». اسـتهجنتُ الوقاحة التي جعلت سمسـارا يطرق الباب ويعرض على الناس ما يشـاء. قالت «ولِمَ الصياح، انه مجرّد عرض ولك أن تقبليه أو ترفضيه، عرضه الآخر كان فـي فـرز الحديقة وبيعها أرضـا أو جزءاً منها إن وافقـتِ». مازالت تخطط لي، تحثّني على تنفيذ مشـروع بناء الملحق في جانب البيت كي نضمـن مصـدر عيش أفضل. هي تعرف أن أسـعد بوجه خاص لا يطيق هـذه المقترحات. ضايقته تلك المحـلات التي خرجت من البيوت في الأزقة وتوالدت حتى استحوذت على الأرصفة في المنطقة بلا انسجام مـع روح البيـوت. «أنـا لا أفهم، وأين هذا الأسـعد الآن، مـرة له وجود ومـرة لا!» قالتها وهـي تنظر إليّ كمخلوقة تعسـة فاشـلة لا أمل بالمرة فيها. «تعرفين جوابي». «لا والله، لا أعرف، ما أعرفه أن وظيفة الفلوس هـي إمـا لتعيدي بها زوجـك أو لتلحقي به، ها أنت عبرتِ بسـلوان إلى ضفـة الأمان، آن لك الآن أن تفكري بنفسِـك، هل هـو موجود، خليني أفهم» وتركتني ليس أكثر من دجاجة في أحسن الأحوال.

أهملَتْني. تجنبتني وراحت تقضي معظم وقتها في تبادل زيارات قصيرة وطويلة مع الجيران. لا أستطيع أن أشرح لها ما يلّم بي، حتى لم أعد أعرف ما يشغلني أو يضايقني.

تقابلنا عند الطاولة في المطبخ ذات مساء. كانت منشغلة بمعالجة فتيل الفانوس عندما استهلّت حديثها بالقول إنها تتفهم خلو المكان من سلوان بالنسبة إليّ وتفهم قلقي عليه. لم تأت على موضوع ابنها، ويبدو أنه لم يشغلها بالمرة. خلعتْ نظارتها وفركت يديها بخرقة نظيفة وهي تراقبني. كانت قد أرخَتْ ربطة فوطتها فبدا وجهها باستدارته القديمة وقد ترصعت بشرة وجهها البيضاء ببقع حمر تحت الضوء أعلى رأسها. سألتني فجأة إن كان أبي قد أخبرني عن زياراتها إلى العِمارة من أجل رؤيتي والسؤال عني حين كنت صغيرة. سألتها لماذا اختارت هذا التوقيت لتفتح موضوعا كهذا؟ هذا لن يغيّر شيئا. لكنها أصرّت وأنا كنتُ بحالة أضعف من أن أعاندها فتركتها. قالت إن الحسد كاد أن يأكل أكباد الناس لأنها حظيتْ به. كانت بنت الثالثة عشرة، فلاحة طفلة، ممتلئة، جميلة، وهو رجل وسيم ذو زهو وتعالٍ ومكانة. فرحَ أهلُها وكانوا من فلاحي «السواعِد»، الفقراء، وبدا الرضا على الوجوه برغم فارق السن الكبير بينهما عندما تم الارتباط. ارتخت قسمات وجهها وهي تتابع حديثها. عائلته الكبيرة من بيت «الخضيري»، كبار الملاّكين حينها ومصدر فخر كبير لهم. أَحَبّها، وبالرغم من عمرها الصغير، أدارت أمورها بشطارة، وعاشت معه أجمل سنوات عمرها، ولاسيما بعد أن جئتُ أنا إلى الدنيا.

ألفيتني شديدة الإنصات، أحبسُ دخاني وأنفاسي لئلا ينقطع حديثها.

تتعمد البطء في نطق الكلمات بينما تدخّن. لكنها لم تكتشف قصة زواجه من ابنة عمه إلا بعد خمس سنوات من حياته معها، استشاطت غضبا ولم تتمالك نفسها فواجهته وكادت تُشعِل النار بالبيت. ألمسُ الانفعال الحي ذاته في صوتها وهي تتحدث، يوقظ فيّ شعورا مغروسا بالخوف منها والابتعاد عنها. خيّرَتْه بين أمرين، إمّا أن يطلّق الأولى أو أن يطلّقها. لم تكن تفكّر خلالها في شيء غير تنفيذ شرطها الذي بقي يحاول أن يجعلها تعدل عنه، ولما لم يستطع هدّدها بحرمانها من رؤية ابنتها وقد نفّذ وعيده بالفعل.

لا غفران في صوتها وهي تتحدث عنه، لا ندم. تسألني إن كنتُ أعلم بهذه التفاصيل. «لا، لم أكن أعلم، ومن أين لي أن أعلم إن لم يتبرع هو أو أنت بإخباري». كانت يداي ترتجفان متعرقتين. الحر خانق في المطبخ ودخاننا تكاثف مع صوت انفجار مدوٍ قريب.

أخبرتني أن عائلته فقدت أواخر الخمسينات الكثير من أراضيها. أحدث ذلك الكثير من الخلافات فيما بينهم من أجل الحفاظ على الأملاك بعد صدور «قانون الاستيلاء» في زمن عبد الكريم قاسم حينها. بعدها امتهَنَ معظمهم الأعمال الحرة والتجارة. أخبرها الناس أن الكثير منهم قد غادروا مدينة العِمارة. ساد الصمت وكل منا مطرقة الرأس. تذكر أنها جاءت في زيارة إلى المدينة أول السبعينات بحثا عني عندما علمتْ من أقرباء لها بانتقالنا إلى بغداد. حصلت على العنوان لكنها لم تقو على الدخول أو مقابلته. لم تستطع. رفعتْ رأسها ونظرتْ إلي. ارتجف صوتها تأثراً. أشفقتُ عليها. أدركت حجم كبريائها في نغمة صوتها. كنت أنوي الحديث معها بشأن أخي لكني استسلمت

لرغبة بتغيير الجو بيننا. نهضتْ وأعادت الفانوس الذي انتهت من تنظيفه إلى الرف. أظنني خزّنتُ من الوقود ما يزيد عن حاجتي. غسلتْ يديها في الحوض بعنايتها وبطئها المعهودين. ألفيتني أسألها مازحة إن كانت حقا تسأل عني حينها أم عنه؟ أخبرتُها أن أسعد كان شبه متأكد من غيرتها وملاحقتها لأبي. استدارت صوبي. تفاجأتْ وكادتْ تثور حين أخبرتها عن يقيني بشكّها الدائم بوجود زوجة معنا في البيت. «لِمَ لا، ألم تري كيف دمرّ هاملت النبتة في الأصيص عند الباب الداخلي لأنني انشغلت بها وأوليتها عنايتي حتى تفتحت ورودها، ألستِ أنتِ من نادى عليّ يومها؟». لا أدري تملكتني نوبة من الضحك جعلتها تستسلم أيضا وتشاركني ضحكي.

انقضى أسبوع كامل من دون خبر من سلوان. لم تأتِ محاولاتي بنتيجة، والموبايل في يدي بانتظار اتصاله. لكن أسعد هو الذي اتصل بي وأخبرني أنه تمكّن من الحديث معه ومتابعته طيلة الأيام الأخيرة التي فاتت. طمأنني أيضا لسير أمور مشروعه من أجل طبع ديوان أسل. فرحتُ لسماع ذلك. حررتُ شعري المحبوس من حزمته التي ضايقتني. ولكن لِمَ وكيف تمكّن أبوه من التحدّث معه؟ في صوت أسعد حيوية زائدة وهو يتطرق إلى التفاصيل، تفاصيل منعتني من مقاطعته الحديث؛ أنه هنّأ أسل أيضا، تحدّثَ معها وشدّ على يدها بالكلمات وتمنى أن يلتقي بها قريبا. ماذا، هل اقتنع الآن بالحلم؟ هل بدأت صورة الحفيد تتراءى أمامه، بل لعله فكّر أنه في الطريق؟ كان في داخلي مليون سؤال، ولكنّ شيئاً ما حال دون مشاركتي فرحه. لم أدع له أن يشعر بذلك عبر الهاتف، ولكني لم أكن قادرة على المواصلة. أكمَلَ الحديث عن اطمئنانه عليه وعن سعادته بتمكّنهم من انجاز الاتفاق مبدئيا مع الدار ودفع مبلغ كمقدم، وماهي إلا أشهر حتى يكون بين أيدينا. لقد وصلته المخطوطة التي أرسلها سلوان إليه وراجعها «هل

تعرفين، لا بأس بها حقيقة، نصوص فيها زخم، عمق وتأمل، وأنا أنتظر بلهفة صدور الديوان». لقد فرح بما أنجزه سلوان وأجّل الحديث معه بشأن عدم رغبته في الكشف عن اسمه. كنتُ حانقة، مختنقة وتعلّلتُ بحجة لأنهي المكالمة بسرعة!

تمددتُ على التخت. أخبرت أمي باقتضاب عما دار. لاحظتْ انزعاجي. ذراعي على جبهتي لتعرف أني أنوي أن أغفو قليلا. سألتني. لا أسمعها. لا رغبة عندي في تحريك عضلة في وجهي أو مفصل في جسدي. استسلمتْ. كان هناك من يضرب على الباب فراحت تفتح للطارق.

جسمي لا يقوَ على النهوض. أسمعهما. رائحة ملابس الجارة تصل أنفي. اتفقتا على التسوق معا. ستقصدان الشورجة معا. أقبل شهر رمضان. تتساءلان كيف ستستقبلانه؟ ألفُ مرجع من أجل تحديد رؤية هلال فقط. تضحكان بصوت عالٍ فأشعر براحة تتسلل إليّ لوجودهما.

عندما رنّ الموبايل قلت إنه سلوان، خفق قلبي وأنا أخفّ الى رفعه. كان صوته هادئا مختلفا وهو يكلّمني. كنت متلهفة لأضمّه إلى صدري. سألني عما إذا كنت قد سمعتُ بالخبر. أي خبر؟ كان خبر موت درويش قد أحزنه. عاد يسألني إن كنتُ تفاجأتُ بالخبر. أي خبر؟. قلتُ لكِ موت درويش أثناء العملية. أجرى عملية؟ في القلب؟ أين؟ في أمريكا. لقد حصل على كل دواوينه التي جمعها من المكتبات ليقرأها. صوته. اجتاحني حنين جارف لاحتضانه. كيف لم تسمعي، ألم يخبرك أبي؟ عن ماذا؟ عن درويش؟ لا، أجل، لا أدري، لم يقل شيئا. لهفتي إليه تكبر، ولكن أذني لم تألف أسلوبه في الحديث. كنت أريد أن أجتاز المسافة وأدخل إليه في غرفته، إلى خلف ما أسمعه. لربما لم أعتد صوته عبر الموبايل. كنت أريد أن أتأكد من صوته، تنبهت أخيرا «حدثْني، وأسلْ، ما أخبارها؟». صمتَ طويلا ثم وبصوت منخفض قال لي إنها اختفت. «كيف؟». «لا أدري». «كيف لا تدري، سلوان هل حصل شيء؟». أكّد «لا اطمئني» بعد تنهيدة قصيرة. «قل لي، أسل، ما بها؟». «ماما، انفصلنا، قد تكون عادتْ الآن، وقد تكون مازالت في

مكان ما هنا في دمشق بانتظار ديوانها، إن كان بمقدورها، هي لم تخلق لتفكر قليلا أو تنتظر». «وأنتَ، من معك، أين أنتَ الآن؟».

أعرفه جيدا. لو لم يكن هناك ما يزعجه لما تأخر عليّ بالاتصال. لو كان لدي جواز لجمعت حوائجي وسافرت إليه. كيف اقتنعت بأن الامور تسير من دون متاعب؟ كيف توهمت أنه يتدبر أمره؟ كيف أقنعوني أن الخوف يعشعش في رأسي فقط وما علي إلا أن أرتاح وأنام؟ كيف تتركه هذه البنت؟ هل سيعتكف في غرفته من دون أن يسأل أحد عنه؟.

اتصلتُ بأسعد. أكدّ لي جهله بما يمكن أن يكون قد حصل بين أسل وسلوان. تفاجأ مثلي وشاب القلق صوته. سيحاول من جانبه الاتصال بسلوان ليفهم منه. إن لم يحصل على ما يطمئن فهو لا يملك إلا الاتصال بالصديق الذي تبرع بمساعدتهما. سألني إن كان ذلك سيغضب سلوان. لم أفهم. ربما قد يحرجه اتصالنا بالصديق؟. لا أدري. أليس من الأفضل أن نمهله يومين آخرين؟ هل ترين تدخلنا معقولا الآن؟ هل أتصل به أولاً أم بالصديق؟ احترتُ في الإجابة. أردته أن يغلق الهاتف ويتصرّف.

رنّ الهاتف مساءً وكان أسعد ثانية. طمأنني على حال سلوان. لا لم يتحدث معه، إنما مع الصديق نفسه الذي طمأنه. أخبره أنهما كانا معا قبل يومين، تناولا الغداء معا. ليس هناك من داع للقلق. وماذا عن أسل؟ حسب اعتقاده أنهما افترقا وهي تسكن عند أقارب لها في السيدة زينب. ديوانها سيكون جميلا، وعَدَ بزيارته في الفندق ليطمئن عليه، وعلى سبيل المزاح قال لأسعد إن علينا ألا نشغل فكرنا، فسلوان حذر

جدا ومقنن في كل شيء، في حديثه، في خروجه من الفندق، في تبضّعه وفي اختياره لما يأكل ويشرب إن كنا نخشى عليه شيئا.

مرت الأيام والهواتف بين مقفلة ومعطّلة. لم أسمع من سلوان. الموبايل في يدي أو جيبي، تهرع به أمي أحيانا إلى الجيران لشحنه، معي على حافة المغسلة وحوض الغسيل، في الصحن الفارغ أمامي، وعلى الجنب من الوسادة.

نسيتُ ما أريد من كل حياتي. حياتي مطمورة في حفرة ما لا أذكر مكانها. كنت أضطر لمراجعة تسلسل الأحداث التي تمرّ في يومي من دون أن أفلح. أفرغتُ طاقتي في مشروع وهمي. كل ما فعلته هو أن أتلقى الاحداث التي تأتيني من كل صوب. إنها الأدوار التي يتحدث أسعد وسلوان عنها. لا يمكن عكس الأدوار. لم أؤمن بشيء يوما. الفراغ يجتاحني. أجهد من أجل البدء بالعدّ. لقد أخفيتُ نفسي وإني لأحفر وأحفر من أجل أن أعثر على ما دفنت ثانية.

جهزتُ الشوربة للفطور وأعددتُ المائدة. صوت تلاوة قرآن وأمي تصلّي في غرفتها. سحقتُ سيجارتي وخرجتُ إلى الحديقة يتبعني هاملت مع مجموعة انضمّت إليه من الجوار، وكأنها الأخرى كانت بانتظار الإفطار. يضيق صدري وقت المغرب. يتصاعد شعوري بالانقباض بانقطاع الحركة في الشارع.

انطفأت حرارة النهار. تأملت الحديقة المحترقة اليابسة من حولي. كنت أستغرب دوما حرص جارتنا على إبقاء الحشيش أخضر في حديقتها قدر المستطاع، برغم هول ما يحدث. لكني بدأت أفهمها.

تـراءى لي سـلوان طفلا يلهـو على العشـب الأخضر. انتعشـتُ لفكرة الاسـتعانة بفلاّحهـا. هـل سـتأتي أيـام أفضـل؟ سـاعة أو سـاعتان في الأرجوحـة بعد الغروب، الاعتناء بوردة من دون التفكير بحماية جدار. ذهبت للتأكد من قفل الباب الخارجي عندما رنّ الموبايل.

اتصـل أخيرا. كان يدخّن وهو يتحدث معي، بطيئا، كأنه ينفخ دخانه في أذني. نعم، أقفل الجهاز لأنه شـعر بالتعب. لأني لن أفهم. شـعر أنه لن يستطيع اللحاق بقلقي إن تحدث معي، لن يقوى عليه. كان ينوي أن يجد حلا بنفسه. كان يريد أن يعثر على نفسه بنفسه فترك حتى الحبوب؛ «ولكن لماذا؟»، «لأنها سعادة أمريكية» لحقتها ضحكة قصيرة منه، قبل أن يوضح لي أنه تركها ليعرف إن كان وقوفه على قدميه يعود إلى عزمه هو، أم إلى معونة المادة الكيمياوية التي تدخل دماغه. لم يشأ أن يسمع صوتي خلالها. من شـأن صوتـي أن يضعفه. كان بحاجة إلى الاختلاء، بحاجة لأن يسـترد طاقته، لأن كل ما مرّ كان جديدا، غريبا عليه جذريا. مَرِض، عاد ليسـتفرغ باسـتمرار، لازم السـرير، ولكنه تحسّن الآن. قرأ كثيرا. كان وحده. أجل، أسدَلَ الستائر طيلة تلك الفترة في الغرفة وبقي وحده ليفكر بصفاء.

كنـت منصتة. لم أشـأ أن تسـمع أمي تفاصيـل المكالمـة. ألصقتُ الموبايـل بأذنـي وظهري إلـى الحائط عند الباب الداخلي. خشـيت أن أنطـق بكلمة. قال إنه حاول كثيرا، حدث ما جعله يتردد ويشـكّ في كل ما قام به. إنه هو نفسـه لا يدري من هو. حاول أن ينظر إلى أسـل نظرته الأولـى لهـا ولكنها كانت أخرى، بـدت غريبة وقربها منه صار مشـكلة يعاني منها. كان عليه أن يختار، بين أن يعين نفسه أو يعينها. لا يدري ما أصابه، برغم أنها هي من مدّت يدها إليه وانتشـلته، هي التي أعادته إلى

العالـم. لكنها هي التـي تخلّصت منه أيضا. يظن أنها حدسـت ما يدور في رأسـه فكانت أسـرع منه بتسـديد اللكمة؛ طريقتها في حزم حقيبتها ومغادرتهـا جعلته يظن أنها كانت قد خططت لذلك مسـبقا. لم يحدث نقـاش أو تـردد في الفعل مـن قبلها وما حدث له يشـبه تأثير ضربة قوية تركته مذهولا، ربما لنجاته- يضحك - ويؤكد ذلك لأنه يشـعر حقا أنه نجا من غرق محتّم. لماذا هو على هذا النحو، لماذا لا يشعر أنه كالباقين؟ نعم، انتهى من الكتاب الشعري، قد صدر وتركه لها، لنا، لا يدري، غير مهم. ما يهمها كان اسمها على الديوان. إنها أقوى منه، لا يخشى عليها شـيئا وقـد أثبتت له ذلـك. يهمه أن أباه يحبّ الشِعر. يصمـت ثم يتابع وأنا أشعر بجفاف ريقه وتوتره؛ لهذا ابتدأ المشروع كله، سيقولها للمرة الأولـى لي، انه قد كتب الديـوان من أجل أبيه، لم يفرح أبوه به يوما، لم يشـعر أنه يثق به: «أتدرين، وكأنني أسمعه للمرة الأولى في مكالمته لي مـن عمّان، صوتـه بدا أكثر طبيعية فـي أذني». الضربـة زعزعته فاقترب من التأتأة في كلامه، كدتُ أشـهق لكني تماسكت. «لِمَ أظهَرَ استعدادَه الكامل للقيام بأي شـيء لمسـاعدتي»، «ولكنه أبوك»، «ولماذا لم يكن أبي قبلها؟». خشـيت مـن أن يتعب بمواصلته حديثه العاطفي، فسـألته عـن مكان سـكنه. مازال فـي الفندق لا يغـادره. سـمعته يبكي بصوت مكتوم. حاولت ألا أسـمع شيئا، لكني كنت واثقة من بكائه. بقي الخط مفتوحـا. يـدي كانـت ترتجف واحتجت إلـى ما يهدّئني. مـا كان هناك غير هسـيس في الخط يشـير إلى وجوده. «سـلوان... هل تسـمعني؟». أعاتبـه لصمته. لعدم طلبه المسـاعدة مني كل هذه الفترة. لم أكن أتأخر لو طلب مني اللحاق به. لا أسـمع صوته. سـلوان! يرتفع صوتي منادياً عليـه فينبثق صوتـه فجأة من مكان عميـق؛ إنه لم يفهم شـيئا من الحياة

يوما، لم تكن لديه القوة ليعيشها كما يعيشها أي انسان عادي ينظر إليه في الشارع ويحسده، لا يدري كيف ينظرون إليه، كل ذلك كان بسببنا، يتهمني بجهلي ما يدور من حولي. يتراجع معتذرا عما قال وينخفض صوته. يعتذر ثانية ويغلق الخط.

ما هذه اللعبة التي ورّطتني الحياة بها؟ لماذا أشعر بأنني السبب في ما هو عليه. أين أدير وجهي كي لا يرى أحد غمّتي. نفدتْ طاقتي. لأطمئن. هو سالم ومعافى الآن، وسيهدأ ويعود. أتحسس جسمي المرتجف وأطرافي مثل فاقدي البصر. إنه عندي، مازال لي. لم ينسلخ شيء مني، سيعود، حتما.

لا ينصت أسعد إلى ما أقول. صدى صوته المنفعل عبر الهاتف «ها هو يريد أن يتدبّر أمره لوحده». «اتركيه، إنه رجل الآن». «ولكن هل أنتَ مقتنع حقا؟». «ما الذي تريدين منه؟». تحتدّ النبرة وصبرنا ينفد. «لا أريد غير أن أطمئن عليه، ألا يمكنكَ أن تفهم، حاول ولو لمرة واحدة؟». «لا، لا أفهم تعقيداتكِ وخوفك اللامبرر عليه الآن، اتركيه». تتكرر كلماته «لِمَ إلحاحكِ على فهم ما جرى، وما يجري دوما، لِمَ تحاولين تعقيد الأمور دائما؟».

«هل هي أنا من تعقّد الأمور الآن؟». استغربتُ هجومه وتبرمه. يطلب مني الكفّ لينهي ما يسبب لنا صداع الرأس كما اعتاد أن يقول. «عليكِ عزيزتي أن تفرحي بما وصل إليه بجهدكِ.. اتركيه».

أتناول قدح ماء وأذهب إلى غرفتي، أقلّب ملابسي المكومة والأغطية والوسائد بحثا عن الحبوب المنومة التي لا أذكر أين تركتها.

دخلتُ غرفته. لم تترك لي أسل الكثير لأفعله لولا الغبار الذي تراكم مذ غادرا. بيجاما نومه مرتبة ممسدة وموضوعة على سريرهما بعناية. ما تُرك على حاله كان كمّا هائلا من الأوراق المبعثرة بخط يده الكوفي على المنضدّة. «كلمات السكران تُطوى ولا تُنشَر يا سونيا» كان يقول كلما سألته عما يكتبه. لابد من أن تكون منضدته هي المكان الوحيد الذي كان ممنوعا عليها التدخّل فيه، ممنوع مسّه ونبشه. الإسطوانات، مسوّدات الديوان، خط يد لمبتدئين، تعود لها، تعود له، خربشات تتكرّر عشرات المرّات في الصفحة الواحدة. رسائل مطوية، أوراق مرقمّة تحوي كلمات منفصلة مصفوفة في أسطر، تمارين لكتابة نوطة تتكرر وتتكرر. دواوين أُنزلتْ من على الرفوف وصُفَّت بعضها فوق بعض إلى جانب الكمبيوتر.

اقتربتُ من طاولته وجلستُ على كرسيه أوضّب الأوراق وأرزمها بانفعال. «أسل» بخطّ يده، بخطّ يدها. أكاد أشعر بنبض قلبه في كل كلمة مختارة ومخطوطة على الورق أو مطبوعة. الورقة المطوية المتروكة على جلد سطح المكتب تحمل خط يده وهو صغير. نظرته

العميقة التي كانت تستنجد بي «ماما راح أموت»! لطالما أشار بيده إلى موضع قلبه مرعوبا من خفقانه. كنا اخترعنا طريقة هو وأنا لنتخلص مما يلّم به من خوف، نكتب الكلمات القبيحة ونطويها ثم نرميها في القمامة أو نجمعها لحين إشعال التنور. وهذه هي ولا شك إحدى القصاصات التي أجهل لِمَ اختار أن تبقى.

لم أشعر بالوقت يمرّ قبل أن تدخل أمي الغرفة لتهزّ كتفي وتوقظني وأنا مقرفصة في سريره. قالت إنها افتقدتني وبحثتْ عني، وأنها ستصلّي ريثما أقوم. بقيتُ خدرة ساهمة والورقة بين يدي. بين الصحو والنوم. دوى مدفع الإفطار وأنا جامدة في مكاني.

أمي تهزّ كتفي. انتهت من تناول فطورها.

تهزّني من جديد. جارتينا تنتظرانني لاحتساء الشاي.

أفزّ من غفوتي، جاءنا من جيراننا في الشارع الخلفي «طبق الحلو». تصيح المرأة الأخرى من عمق المطبخ، صوت بنت شابة، أمي تنادي عليّ لآتي وأتذوق شيئا من صحن بقلاوة رمضان وصلنا. صاروا ثلاثة وهُم بانتظاري!

خريف 2008

يقول إنه معنيٌ دائما بالخريف. هو رمزه الذي يحملُ زخما أكبر. يتخيّله يمشي ليعبر الجميع، أما الشتاء فيبقى ثابتا في مكانه جاثما على الصدور عندما يحلّ. يطلب أسعد مني إرسال بعضٍ من ملابسه الصوفية بعد أن تبدّل الطقس في عمّان فجأة. يشعر أنه وحيد والشتاء سيقسو عليه. إنه يعيش على الذاكرة التي تقتحم حياته وتُفسِد عليه الرؤية الصحيحة للأمور. طلبَ مني إرسال حقيبته مع صديق سيجيء إلى بغداد. اعتذرتُ منه لنسياني أمر الحقيبة تماما في غمرة الأحداث التي تمرّ بنا وانشغالي بترميم الطابق العلوي استعدادا لعودة سلوان.

وددت أن أسأل وأين كان هو بعد كل هذه الغيبة، لكني أحجمت. قال إنه بعث إلي بمغلفات من الحبوب. كان صوته خفيضا ولم أبذل جهدا لأعينه من أجل إحياء المكالمة. أخبرته أن الوضع الأمني في بغداد في تحسّن بعض الشيء، مدفأتنا النفطية تقاعدت، العواصف الترابية انحسرت ولكن الجو مازال متقلبا، وكنت قد هيأتُ له بعض الملابس الصوفية المركونة بعد أن قمتُ بغسلها ويتوجب عليه أن

يشتري بضع قطع إضافية جديدة من عمّان. قال إنها مهمة صعبة لم يقم بنفسه بها مذ زاوجنا. لم أعقّب.

لم تكد السماء تنذر بالمطر حتى فاضت الحديقة واحترت في إغلاق منافذ البيت. لم أعثر على المزيد من الخرق والأغطية لأسدّ الفتحات أسفل الأبواب. تعبنا أمي وأنا في تنشيف الأرضية وقررنا أن نترك كل شيء على حاله جزعا. ولا أعرف كيف صعد الماء إلى غرفة سلوان. شهقتُ عندما فتحت الباب ورأيت الأرضية غارقة بالماء. خطرت ببالي فكرة غرقنا المفاجيء، مثل البرق الذي شقّ السماء فجأة. إن الماء سيصعد قليلا قليلا حتى تختفي آثار هذه الغرفة التي تجمع ماضينا. كل ما حفظه سلوان سيختفي. كدت أختنق. مدن بأكملها غرقت تحت الماء، اندثرت تحته بكل معالمها. تدور ببالي الأفكار سريعة متقاطعة، فكرة أننا نندثر تحت التراب الذي ما انفك يهاجمنا تبدو أكثر واقعية من الماء. ولكن لا رحمة لصحراء مهتاجة ولا لغيوم حادة المزاج ولا لمجارٍ طافحة تعبة.

كان زوج نعاله الاسفنجي يطوف على السجادة، تحوطه كتل من الورق المبروش ناعما، كتل سائبة متحركة، منقوعة ونصف منقوعة، يتوسطها الفأر الذي انقلب على ظهره. حبستُ أنفاسي وخطوتُ إلى الداخل خطوتين، محملقة فيه، في بطنه المنفوخة وفي أطرافه المعقوفة. تأكدتُ أنه ميت.

موجة البرد ألزمت أمي الفراش لأيام بجسم محموم وصعوبة تنفس مقلقة. اتصلتُ بحسام برغم اعتراضها. كنت أودّ التحدث معه بشأن صحتها. أخبرني أن مقتنياته سُرقَتْ من البيت خلال سفرتِه الأخيرة إلى

بيروت وهو بحاجة لينسى قليلا. كان قد ابتُلي هو الآخر بإحدى أزمات الحساسية الغريبة المنتشرة ولم يغادر بيته لأيام. هناك من يهدّده وهو متردد بأمر المغادرة إلى بيروت. اعتصرت أخباره روحي. وعد بأن يمرَّ بنا وطلبتُ منه أن يحضر لي مشروبا في طريقه.

كانت أمي قد التقته مرات معدودة من قبل وتحدثتْ معه. كنا بلا كهرباء ما جعلني أظن أنها لم تسمع من مكالمتي شيئا. لعلها تحاملت كثيرا لكي تنهض من سريرها. قالت لي فور انتهائي من المكالمة «هذا الرجل لن ينفعكما». كانت الظلمة تحيطنا ما جعلني أتخيل كلماتها قنابل صوتية تلقي بها كعادتها من دون أن تأبه لتوقيتاتها وأهدافها. لا تني تعليقاتها توقظ طبيعة العلاقة التي كانتْ تربطني بها. إنني في حرب غير معلنةٍ معها يستعّر أُوارُها ما أن تُدلي بتعليق ما. حاولتُ ألا أظهر ما يضايقها مع اعتلال صحتها. نتقابل هي وأنا وسط عتمة الصالون مثل أشباح اعتادت سكنها في هذا البيت. قلت لها بنفاد صبر «ما الذي تقصدينه بهذا أمي؟». «هذا الرجل لديه مشكلة يا ابنتي»، قالت شبه متسائلة. فوجئتُ من حدسها الذي يعمل بقوة. أوشكت أن أطلب منها عدم التدخل لكني أمسكت وضحكتُ متهكمة: «ومن منا خال من المشاكل والعاهات، هل ترين إنّ في نيتي العثور على زوج، أم لعله مجرم بالخفية، من القاعدة أو من تلك المليشيات التي تتسلى بترويعنا؟». «لا، ولكن أنتِ تفهمين قصدي، إنه يؤثر على سلوان، لا ينقصنا ذلك، ما الذي ستفعلينه؟». كانت تبحث عني بصوتها وسط الظلمة بعد أن نهضت وتحركت من مكاني متوجهة الى المطبخ. تململتْ يداي واشتعلتا بحرارتهما. كنت في صراع للحظة انقلبتُ

بعدها إلى وحش يود لو ينقضّ عليها لا ليقتلها بل ليرعبها، ليجعلها تشعر بالألم ولو قليلا كي تكفّ عن وخزاتها المؤلمة هذه. اختنق الفانوس كعادته. لم أعد أقوى على السكوت. أنا المريضة بالفعل كما تقول ولا أحد غيري. ضربتُ الطاولة بيدي أمامها؛ «قولي لي بربكِ ما الذي كنتِ ستفعلينه لو كنتِ أمه بدلا مني؟». «أنا أمّه أيضا». «لا لستِ أمه، ولم تكوني يوما أمّاً». نوبة سعال لازمتها وجعلتني أدور حول نفسي في مكاني. كنت أتمنى لو كان بالإمكان أن أنقذف بالسيارة، أنطلق بها في شارع طويل خال لا ينتهي، أهرب بأقصى سرعة تاركة كل شيء خلفي. صحتُ بأعلى صوتي «هل تذكرين اليوم الذي أخذني فيه أسعد إلى البصرة وأدخلني إلى بيتك لأول مرة لألتقيكِ، كنتِ مثل قالب من الثلج يقف أمامي، لم تحاولي حتى...». أجهشتُ بالبكاء وفقدتُ قدرتي على السيطرة على نفسي وأنا أردد والظلمة تطبق علينا تماما «لم تكوني يوما أمّاً، لماذا، لأن أخي الذي هو ابنك أولا صار رجلا ومازال يتعذب بسببكِ، وبسبب شكّوكك هو يفتقد الاحساس بالأمان وها هو قد هرب. هل تتذكرينه، هل تقلقين على ابنكِ، أجيبي بالله عليك، هل فهمتِ لماذا لستِ أمه، لو كنتِ أمّا لسلوان فعلا فستفكرين فيه، فيه أولا لا في نفسكِ ومن هم من حولكِ، ستقولين سُحقا وإلى جهنم بالجميع، أنا لا أعرف ما يلمّ بإبني وما عليّ ان أعمل، إن كان طبيعيا أو شاذا أو أو أو، لا أدري، ما أعرفه هو ما هو أمامي، إبني، هذا المخلوق التعِس الضعيف الذي سيبقى معذبا إن لم يرحم نفسه. هذا قدره، هذه طبيعته، خلقته، هذا هو قدرنا يا أمي، صدقيني لا أريد الآن إلا أن يعود إليّ لأطمئن عليه فقط، وليسافر أو يبقى أو يفعل ما يشاء و«طز بكِ»، «طز

بـي» وبأسـعد وبالعالم كله، هل سـمعتِ، «طز بنا»، جميعـا، المهم أن يكون سلوان بخير، المهم عندي هي حياته، وسآتي له بسعادته وراحته مع مَنْ يختار حتى لو تطلب الأمر الذهاب إلى آخر الدنيا».

جاءني صوته شبه ضاحك. طمأنني قائلا إنه في رعاية صديق عراقي شاب، تعرّف عليه منذ فترة وهو يشاركه أفكاره المجنونة ويكتب الشعر مثله. يضحك بصوت صاف مستقر. يكرر إنـه أفضل بكثير. زار الكثير مـن الأمكنـة بصحبته. سـيحكي لي كل شـيء عندما يعود. اشـترى لي اسطوانة، صولو بيانو، ستعجبني وسنسمعها سوية. مشتاق إليّ. أستغل صوته الباسـم لأفهم ما يجري فيقاطعني، مؤكدا أنه مرتاح، بحاجة الى مزيـد من الوقت، سـيعود، لكن ليـس الآن، قالها عن ثقـة، لا، إنه ليس بحاجـة الـى تحويل مبلـغ من المال، ليـس بعد، يطلب بصـوت آمر أن أكفّ عن القلق والسؤال. ويسأل عن جدته ذهب وعن هاملت.

نهاية 2008

نامـت أمي. رغبتُ بأخذ حمام. كنت متعرقة وشَـعري يملؤه الرمل والغبار. لكني تراجعت عن الفكرة لأن مجرد أخذ حمام صار مشروعا يتعبني. كان البيت باردا جدا، مغطى بطبقة ناعمة من التراب بسبب مواد البنـاء، والأرضية مطينة لم تجفّ بعد لحركـة العمال في البيت صعودا ونزولا من وإلى الطابق العلوي. بحثتُ عن الحقيبة التي أوصاني أسعد بإرسـالها إليـه فلـم أجدْهـا. كان يحرص علـى وضعها في قـاع خزانة الملابس، أسـفل ملابسه. لم أجدها في المكان المعهود ولكني عثرتُ عليهـا بعد محـاولات تحت السـرير داخل حقيبة السـفر الكبيـرة التي ابتعناها يوما استعدادا لرحيلنا جميعا. تحركت بحذر كي لا أوقظ أمي. نظّارتي ليست قريبة ولم تكن الإضاءة في الغرفة كافية فسحبتُ الحقيبة وسـحبت نفسـي معهـا إلى خـارج الغرفـة. كان فـي داخلها مسـوّدات مرزومـة في جزأين، تسـللّ التراب إليها برغم حرصـه على وضعها في كيس نايلون مغلـق. كنت أفضّل أن ينتظر لعل جديدا يطرأ خلال الفترة القادمة. أخشى أن تتسبب كتاباته لنا وللصديق بأذى لو صادف وفُتشّتْ

في الطريق قبل وصولها إليه. لا أريد أن نعود وندفع ثمنا من جديد لشيء لا يستحق كل هذا العناء الذي تكبدناه في حياتنا. لكني من ناحية أخرى كنت أريد له أن ينشغل بما هو قريب لنفسه.

شققت طريقي وسط مواد الطلاء والفرش التي اختلطت بعلب المسامير والأسلاك الكهربائية وأواني خلط الاسمنت والموصلات التي احتلت الصالون مخافة سرقتها إن تُرِكَت في الكراج أو الحديقة كما أوصاني العامل.

أخرجتُ الرزمة الأولى من الأوراق لأتأكد من فحواها على الطاولة في المطبخ. فكرتُ وأنا أزيح النايلون الذي لفّه بعناية حول المسوّدة أن المسافات مع الأيام أخذتْ على عاتقها ترتيب شكل بائس وخائب للعلاقة بيننا. شكل الحياة هذا خالٍ من طعم الراحة إن لم يأخذ أسعد قرارا لنستقر وفقه. سيعود سلوان قريبا. وعدني بذلك حالما يرتّب وضعه. طلب اللجوء ليس من شيمة أسعد، لن يلائمه ذلك، ما الذي سيفعله هناك، هذا إن افترضنا حدوث معجزة وتمّ قبوله؟ إن كان ينتظر ضوءا أخضر مني فليسأل. لعل تحسن الأوضاع يستمر، الكل يأمل أن تتحسن الأوضاع، الكل يُجمع على أن الأمر لا يمكن أن يزداد سوءا عما كان عليه، أو هو عليه. بالتالي عليه أن يعود وأن يقبل بوضعنا كما هو. لا أجده إلا إنسانا نقيا مُحبّا غير محظوظ على الدوام. ذلك يثير عطفي عليه بدل لومه. ولو استعرتُ حظه في صورةٍ الآن لتخيلتُ كلبا أمريكيا ضخما في نقطة سيطرة لن يختار غيره، سيترك هذا الكلب كل شيء ويتوجه إلى أسعد وحده ويعطي إشارته على الفور بوجود خطر ما. ضحكتُ بسرّي وتناولتُ نظارتي. آثرتُ الوقوفَ لأتصفحَ

الأوراق كي لا يصعب عليّ النهوض بعدها. أوقدت شمعةً مخافة أن ينقطع التيار الكهربائي وأغرق في الظلمة. تلبسّني هذا الهاجس منذ أن سافر سلوان. أعرف حروفه الناعمة المدوّرة، أعرف قلمه وحبره الأسود. كانت الصفحات مرقّمة، الأولى حملت العنوان «اختطاف». عيني مرّت سريعا على الأسطر، عادت لتتأكد مما هو مكتوب. التقطت عيناي بعض الكلمات الشاذة الغريبة فأخذتُ بقراءة الأسطر سريعا الواحد بعد الآخر ثم قفزت فقرات لأتأكد من أن المحتوى هو ذاته حتى السطر الأخير.

«دخلتْ زوجةُ الجار لتسأل عن زوجتي. أخبرتُها عند الباب أنها في طريقها إلى المستشفى مع ابننا، بينما أفسحتُ الطريق لها لتتفضّل. تهدلتْ العباءة واستقرت على كتفيها وهي تدخل. رفعتْ طبقَ الحُلو أعلى قليلا باحتراز لتقدّمه إليّ باسمةً وهي ترد «هذا وفاء لنذر قديم». ترفع كتفها اليسرى بحركة ترافق رفع حاجبها تعبيرا عن فرحها، تليها ضحكة رشيقة وهي تجتاز عتبة الباب وتستدير بحيوية صوب المطبخ الذي تعرف مكانه جيدا. تبعتُها وهي مستمرة بالحديث بحيوية وبصوتٍ كانت تتلاعب بلحنه حتى خُيّل لي أن لسانها كان عضلة متدربة تجول في حلقها داخلة خارجة بلياقة عالية. ستضعُ الطبقَ على الطاولةِ في المطبخ أولاً. ولكنها لن تخبرني عن قصة النذر. تنحسر عباءتها وتسقط عند قدم طاولة الطعام ويَبان الثوب الجيرسيه المزهّر الذي يرسم منحنيات ظهرها والخصر الناحل انحدارا إلى عجيزتها الكمثرية العامرة. لون أرضية الثوب البيج يجعل زهوره تتجرّد أمامي وهي تصعد وتنزل بتموّج على لحم قفاها. بيتُنا هو السابع الذي استلم

حصتـه من النذر وقد أتعبَها المشـوار. تقول إن النـذور والخيرات التي تـوزع صارت أشـبه بموضة ولم أقـل لها ورخيصة التقليـد أيضا. تضعُ الطبـقَ الحلـو بانحنـاءةٍ طـالَ زمنُهـا ربما قبـل أن تسـتقيمَ قامتُهـا ثانيةً وتسـتديرَ بخفّـة نحـوي ليصطـدمَ صدرُها الـذي طفحَ من شـقّ الثوبِ بيدي الممدودةِ إليها بعباءتِها. تقدح أطراف يدي وتلتهب وهي تغوص للحظـة في لحم ثديها اللدن. وكأنها قدحة مايـكل أنجلو الإلهية بُعثَتْ إليّ جراء مسِّـها. رجعتْ إلى الخلف قليلا معتـذرة ثم عادتْ وتقدمتْ صوبـي تطلـب مني أن ألفّ العباءة حول كتفيها. تشـير إلى دبَق السكّر في أطـراف أصابعها التي رفعتْها أمامي. أقتـربُ بانفعال ورائحةُ عرَقِها الممتزج بعطرها تلفحُني وتجعل أنفاسـي تتسارع. ترفع ذراعيها قليلا. تخشـى أن تلـوّث شـيئاً بالدبق هـذا. مثل طفلة تتـرك لأمها أن تُلبسـها ثوبهـا منشـغلة بالحلوى في يدهـا أهّمُّ بلـفّ العباءة حـول كتفيها بينما هـي منهمكة بلعـقُ اصبعَها بصـوت تمطّق ودوران لسـان يصيبان أذني بحمّـى. يدي تلتّف حول ظهرهـا لأثبتها على كتفيها. تُبقي على تكويرةَ فمِهـا بالإصبع داخله وهي تنظر إليّ برأسـها الذي رفعته إليّ وحنته إلى الخلـف. تثبّت عينيها المكحلتين فـي عينيّ. نظرتُها تحمل جوعَ مَنْ لم تضاجع منذ سـنين. تقترب أكثر لأضبطَ وضـع العباءة. تدني بصدرها، يعلو ويهبط ليلهب جسـدي مرة واحدة باقتراب أنفاسها المتلاحقة من صدري. تمرّر اصبعها على شفتيّ لأذوقَ سكّر طبقها...

«إلحسْ»، قالت بصوت متحشـرج وهـي تُلقي بجسـمها عليّ. لم أجدنـي إلا وأنـا منقـضٌّ على وجهها مفترسـا شـفتيها بشـفتيّ ونهديها بيديّ. اللاءات تصدر منها سريعة خافتة مبتورة كلما تمكنتْ من افلاتِ

فمها، تفتحه لتستنشق الهواء وأغلقه ثانية بفمي ملتهما لسانها المبلل اللعوب الحار. تستسلم بأنّةٍ وتكفّ يداها عن دفعي، تصعدان لتضغطا على يديّ اللتين قبضتا على نهديها...

فأرفعها مرة واحدة ليتهالك نصفُها على الطاولة. أرفعُ الثوب أعلى بطنها، تفلت منها ضحكة مكتومة لتوحشي. ترتجف أعضاء جسمي أمام فخذيها البضّين وتُزيح يدي سروالها جانبا...

الشهوة تأكل جسدها وجسدي، تموء وتفوح رائحة لذّتها وتنهداتها تصل أذنيّ، سمفونية تقود إصبعي بحركاتها الحادة إلى مكمن لوعتها المختبيء الناتئ...

أرفعُها بنشوتي العارمة لأهصرها بين يدي وأزيح الثوب عن الكتفين إلى الجانبين، أُفلتُ نهدَيْها الممتلئين من حمالتيهما لأتأمل مفاتن هذه الجسد مكعبا بعد آخر، تدويرة كتفين نُحتتا للعضّ وحلمتان كفصي جوزة طازجة منفلقة يجرّانني إليهما فيتمرّغ وجهي بينهما...

تصرخ وتصرخ منتشية ضاحكة متلذذة بجسدها الذي يتلوى مثل سمكة بين يدي. فحش لذيذ تلتهب له كل حواسي مرة واحدة. أرفعها وأعيدها إلى الطاولة، أقلبها على بطنها وأحضن مؤخرتها بيدي وأسحبها إليّ. تغلق فخذيها بإصرار لتطيل اللعب بآهات التمنّع التي تطلقها...

توسلاتُها تشدّ فخذها بقوة إلى وسطي، أسناني تروح منغرزة في أعلى خاصرتها وأنا أقذف بين فخذيها.»

كنتُ أرتجف. انبعجتْ معدتي وكأن خرطوما أُدخِلَ في فمي شَفَط كل ما في داخلي مرة واحدة. سخن سطح جلدي واصطبغ

بالبقـع الحمر. كانت هذه هي الصفحـة الأولى من مجموع 50 صفحة حوَتْهـا الرزمـةُ الأولـى. وضعـتُ نظارتي جانبـا ورميت فردتـي نعالي جراء الحرارة التي شـبّت في قدميّ متوسـلة برودة مـن بلاط الأرضية. فركـتُ عينـيّ اللتين غامتـا. لبثتُ فترة سـاكنة في مكانـي إلا من دقات قلبي المضطربة. تناولتُ العلبة وأشـعلتُ سـيجارتي ثم استدرتُ لآتي بزجاجَـة الويسـكي من المكان الـذي حرصتُ على إخفائهـا فيه داخل الخزانة العليا. لا أدري لِمَ اخترتُ كأس الويسـكي الكريستال المفضلة لدى أبي. لها قاعدة سـميكة ثقيلة تستقر بثقل على الطاولة. هو تماما ما أحبّـه بكؤوس الويسـكي؛ امتلاء راحة اليد بها في احتضانها. أمسـكتُ بهـا حتـى التصقـت راحة يـدي بزجاجهـا تمامـا، رفعتها لأعلـى قليلا لأتأمل تلألؤ الضوء البخيل المعكوس من بلورها. كريسـتال «موسـر» الـذي كان يحلو لأبي أن يتباهى به، لم يقاوم جماله رغم كلفته الباهضة حين اقتناه في إحدى سفراته إلى براغ. أينه ليراني الآن، كنت أرقبه وهو يذوي يوما بعد يوم، أنفاسـه ما زالت في زوايا البيت، ومن ينظر سـيظن أني أحتفل بنجاحي وتحققي... من دون قطعة ثلج! أرى الكأس تتهكم بي، حككتُ جلد رأسـي مرات، انحنيـتُ على الطاولة وهززته لأنفض التـراب والرمـل على الورق. لم أتنبه إلى التهام لهب الشـمعة لأطراف خصلات من شعري قبل أن تقتحم أنفي رائحة احتراقه النفاذة.

يسـكت الطـرق فـي رأسـي ويختفي ضجيـج المولـدات. الصمت مطبـق ولا أدري كيـف تخيلتُ وأنا أنظر إلى السـقف العالي أني عدتُ إلـى خشـبة المسـرح وأن الأضواء أطفئـتْ. أحد الأحلام التـي ركلتها بقدمـي تحت هـذه الطاولة الصديقة مـن دون أن يلحظ أحد. سـحبتُ

الكرسي ببطء لأجلسَ وأرفعَ ساقيّ إلى كرسي مجاور. فركتُ أطراف شعري المحترقة وأخذتُ نفَساً طويلا وأنا أنظر أعلى الصفحة ثم نزولا إلى أسفلها مجددا. بيدي التي لم تعد تهدأ رجفتُها من دون مشروب أو حبة منوم قلبتُ الورقة ببطء على بطنها، أخذتُ نفسا طويلا ثانية، عدت بظهري إلى الوراء ورفعتُ رأسي وتلفتُّ لأتأكد أني في بيتي، بحماية جدرانه. نفثتُ الدخان ببطء، تمهلتُ قبل أن أعود وأسحبَ الرزمة الثانيةَ.

انتهت

كوبنهاجن 2013

دُنى غالي

منازل الوحشة

إنها مدارات الوحشة! حين يفتقد المرء الإحساس بالأمان يلجأ إلى خلق عالم داخل جدران منزله. رفعوا السور الخارجي قليلا، أسدلوا الستائر وأحكموا اغلاق الأبواب. لكنها تبقى مصدات سهلة! المنازل البغدادية المتمسكة بالحياة دارت حول نفسها، دائخة، موحشة، مليئة بالمخاوف والاحتمالات الخطرة. الشوارع الرئيسية من حصة قوات الاحتلال والشوارع الخلفية والأزقة من حصة اللصوص ومشعلي الحرائق والميليشيات الملسحة.

بغداد المدينة لم تعد ذاتها، والبيت، تكاثرت داخله الظنون مع العزلة والخوف الدائم، بينما يحاول الجميع أن يستعيد فيه الأمن والسلام الداخلي وإيقاع المنزل بأيامه العادية.

يتوقف العقل عن التحليل، والقلب يضرب بشدة. الناس يتغيرون. الرحيل إذن ما يسفر عنه هذا المأزق الوطني الشامل. لكن ليس من السّهل على امرأة أن تغيّر حياتها على عتبة منتصف العمر.

الرجل يغامر على الرغم من التهديدات. والمرأة ترتق النسيج العائلي الذي راح يتمزق لتظهر منه الجروح القديمة والذكريات الحزينة وصمت الغرف والممرات... بين سلوان ابنها المحكوم بقدَر هذا البلد، والزوج الذي يتنقل بين سوء الحظ والضعف الذي يدفعه إلى قرار الرحيل يصبح التغيير الذي تشعر به غير محتمل.

بلغة سردية ممتعةأ تعبِّر دنى غالي عن حياة خلت من المتعة.

لوحة الغلاف: للفنان العراقي علي طالب

ISBN 978-9953-582-92-4

9 789953 582924

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

دار محمد علي الحامي

دار محمد علي للنشر

تونس
بريد إلكتروني: edition.medali@tunet.tn
موقع إلكتروني: www.edition-medali.com